المواهب الربانية
من الآيات القرآنية

تصنيف

فضيلة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

المتوفى سنة ١٣٧٦هـ

رحمه الله

حققه وعلق عليه

عابد بن محمد الأثري

عفا الله عنه

المواهب الربانية

من الآيات القرآنية

المواهب الربانية
من الآيات القرآنية

تصنيف

فضيلة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

المتوفى سنة ١٣٧٦هـ

رحمه الله

حققه وعلق عليه

عابد بن محمد الأثري

عفا الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد عبده ورسوله

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعـــــــد:

فإن خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلاله في النار.

وبعد...

فإن أجل الأوقات، وأعظمها تلك اللحظات التي يعيشها الإنسان في رحاب القرآن يسبح في بحار نوره وينهل من تعاليم آياته، فهو خير ما تُصرف إليه الهمم ويبذل له الوقت وينفق من أجله المال ولم لا، وهو الهدى الذي من اتبعه لا يضل أبدا ولا يشقى ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ [طه ١٢٣].

وقد كانت البشرية من قبل القرآن تتخبط في دياجير الظلام الدامس الذي عم المجتمعات قبل مبعث النبي المختار ﷺ فما أخرجهم من هذه الظلمات إلى النور المبين إلا هذا الكتاب الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾.

ولما كان هذا القرآن هو هداية للبشرية أمر الله عباده بتدبر آياته وفهم معانيه فالقرآن الكريم ليس لمجرد الترديد والقراءة فحسب بل هو منهج حياة ودستور أمة على كل مسلم العمل به والتقرب إلى الله بتطبيق تعاليمه.

والقرآن الكريم ليس كغيره من الكتب إنما هو الصالح الأصلح لكل زمان ومكان، لذا ظل الأئمة يغترفون من بحار أسراره، تذوقوا لذة العيش معه فأنار الله قلوبهم بنوره، فبذلوا كل ما في وسعهم من جهد لإماطة اللثام عن معاني القرآن، واستخراج خزائن أسراره فصار هؤلاء الأفذاذ أعلام هدى ومصابيح دجى، تضيء للأمة سيلها إلى فهم الكتاب العزيز، فكان من هؤلاء: الطبري شيخ المفسرين والعلامة ابن أبي حاتم وابن الكثير إمام الحفاظ، وغيرهم من الأئمة العلماء والأعلام النبلاء.

ولما كانت خزائن القرآن لا تنفد أبدا ظل التدوين في التفسير يزداد عاما بعد عام وعصراً بعد عصر حتى خرجت إلينا مصنفات في الآونة الأخيرة تيسر لنا معاني القرآن ومفاهيمه فكان من بينها كتاب «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» لفضيلة الشيخ علامة القصيم عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو إمام من الأئمة السلفين وفقيه من فقهاء الحنابلة المجددين فجاء كتابه هذا سهل العبارة، لطيف الإشارة، دقيق في فوائده خالٍ من الإماطة، فلو دققنا النظر في هذا التفسير القيم لوجدناه كتاب عقيدة وأخلاق وعبادات وأحكام، فهو بمؤلفه هذا قد يسر

القرآن للفهم وسهل معانيه للناس فنال قبولاً حسنًا عندهم.

وبعد فراغه من كتابه هذا «تيسير الكريم الرحمن» عام ١٣٤٤هأعاد النظر في القرآن الكريم بتأمل جديد فوقف على بعض المعاني التي بدت له ولم يكن قد وقف عليها من قبل؛ فدون هذه التأملات وأعقبها بإرشادات ونصائح مهمة وجمعها في كتاب «المواهب الربانية من الآيات القرآنية»، وهو كتابنا هذا وكان ذلك في الشهر المبارك عام ١٣٤٧هوفي ذلك يقول في المقدمة: «هذه فوائد فتح الله علي بها في هذا الشهر المبارك نسأله المزيد من كرمه .....».

وأشار في الخاتمة أن تمام هذا الكتاب كان في ٢٨ رمضان ١٣٤٧هـ.

فجزى الله الشيخ العلامة على ما بذله من جهد في خدمة الإسلام خير الجزاء ونسأله تعالى أن يتغمده بواسع رحمته وعظيم مغفرته إنه سميع مجيب.

وصلى اللّٰهُمَّ على نبينا محمد وعلى وصحبه وسلم.

كتبه

عَابِدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الأَثَرِيُّ

عملي في الكتاب

١- تخريج الآيات القرآنية.

٢- تخريج الأحاديث وعزوها إلى مصادرها من كتب السنة.

٣- حكمت على الحديث صحة وضعفًا حسب ما جاء عن أئمة هذا الفن وعلى ما تقتضيه قواعد هذا العلم.

٤- إذا كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما اكتفيت بالعزو إليهما، وإذا كان في غيرهما فصلت القول فيه، وبينت من أخرجه من أصحاب كتب السنة، وقد أذكر الشواهد إذا كانت تقوى الحديث، أو أذكر الطريق الصحيح للحديث ثم أبين طرقه الأخرى التي فيها ضعف إتمامًا للفائدة.

٥- قمت بتصدير كل فقرة بعنوان يتناسب مع المراد من الآيات حسب تفسير المصنف، ويكون العنوان من وضعي أنا، وقد أضع أحياناً بداية كلام الشيخ المصنف ثم أشير إلى هذا في الحاشية حرصاً على أن لا يختلط كلامي بأصل المتن.

٦- علقت على بعض المسائل، وشرحت بعضها لحسبما يقتضيه السياق.

٧- ترجمت للشيخ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٨- قمت بفهرست العناوين التي وضعتها على كل فقرة.

ترجمة المصنف

١) اسمه ونسبه ومولده ونشأته:

هو العالم العلامة الجليل المحقق المدقق النبيل أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي الناصري التميمي النجدي الحنبلي[(١)].

ولد الشيخ في مدينة عنيزة بالقصيم في الثاني عشر من محرم سنة سبع وثلاثمائة وألف ١٣٠٧ من هجرة المصطفى ﷺ، توفيت أمه وله من العمر أربع سنين، وتوفى والده وعمره سبع سنين فعاش الشيخ يتيم الأبوين وتوفى والده وعمره سبع سنين، فعاش الشيخ يتيماً، فقام أخوه الأكبر حمد بن ناصر برعايته، كما أشفقت عليه زوجة والده أشد من شفقتها على أولادها، فصار عندها موضع العناية والرعاية، وكانت ملامح الخير والصلاح والنبوغ والذكاء تظهر في وجه الشيخ، فاعتنى به أخوه عناية فائقة فأدخله في مدرسة الشيخ بن دامغ فحفظ فيها القرآن على ظهر قلب وهو يافع.

فنشأ الشيخ يتيما، واليتم يصنع في الرجال الطموح والتحدي، والقفز على

---

(١) وأسرة آل سعدي ينتهون في نسبهم إلى آل مفيد، وآل مفيد فخذ كبير يرجع أصلهم إلى بطن آل حماد، الذين هم من بني العنبر من بني عمرو أحد قبائل بني تميم الشهيرة.
وأما نسبه من جهة أمه فأخواله آل عثيمين، وهم من آل مقبل من آل زاخر من الوهبة، نزح جدهم سليمان العثيمين – جد الشيخ السعدي – من أشيقر إلى عنيزة فطاب له سكناها.
انظر: علماء نجد خلال ثمانية قرون (٣/ ٢١٩)، وروضة الناظرين عن مآثر علماء نجد (١/ ٢٢٠).

الصعاب، وكان في بيت صالح من أب وأخ وأم وزوجة الأب، فكان لهؤلاء أثرا في نشأة السعدي، نشأة صالحة متوجهة إلى الخير ومعالي الأمور.

٢) طلبه للعلم ومشايخه:

شرع الشيخ في طلب العلم في سن مبكر ولازم العلماء ملازمة الظل لصاحبه؛ فاشتغل بالعلم على علماء بلده ومن يرد إليها من العلماء، وانقطع للعلم وجعل كل أوقاته مشغولة في تحصيله حفظا وفهما ودراسة ومراجعة واستذكارا، حتى أدرك في صباه ما لا يدركه غيره في عمر طويل، ثم أقبل على كتب الشيخين ابن تيمية، وابن القيم، قراءة وفهما، فكان لها أثرا في فتق ذهنه، وتوسعة مداركه.

وقرأ علم الحديث ومصطلحه والفقه وأصوله والتفسير على كل من الشيخ إبراهيم ابن حمد الجاسر قاضي عنيزة ومحمد بن عبد الكريم الشبل وصعب التويجري وصالح القاضي كما قرأ علوم العربية على كل من الشيخ محمد أمين شنقيطي وصالح العثمان القاضي ومحمد بن عبد العزيز المانع وعبد الله بن عائض، وأجازه في الحديث الشيخ إبراهيم بن صالح بن عيسى وعلي بن ناصر أبو وادي.

ولم يذكر المترجمون للسعدي رحلات علميه له، وإنما كان أكثر مشايخه من علماء نجد، ومن أهل عنيزة تحديدا، وقد أشار إلى ذلك البسام بقوله: «ولو حصل له جولة في بلاد العالم، وجالس العلماء والمفكرين، واطلع على ما يقدمه العلم الحديث من صناعة واختراع واكتشاف لتفتحت أمامه آفاق واسعة».

لكنه تتلمذ على بعض المشايخ الذين كانت لهم رحلات إلى خارج البلاد،

فالشنقيطي جال البلاد، وعبدالله بن عائض درس بمكة ومصر، وعلي بن ناصر أبو وادي أخذ عن علماء الهند، وابن مانع درس بالعراق والشام وغيرها.

٣) عقيدته:

كان الشيخ – رَحِمَهُ ٱللَّهُ – سلفي العقيدة، منتحلا مذهب السلف؛ فكان محققا لمذهب أهل السنة والجماعة في العقيدة، فدرس وألف كتبا في العقيدة منها المنظوم ومنها المنثور، ومنها ما هو شرح لبعض كتب العقيدة لبعض العلماء كابن تيمية أو محمد بن عبدالوهاب، ومن ضمن كتاباته في العقيدة ما هو رد على بعض المنحرفين في العقيدة كرده على القصيمي، فكانت تقريرات السعدي موافقة لمذهب الحق وهو مذهب أهل السنة والجماعة في كل المسائل المتعلقة بالعقيدة.

٤) تلاميذه:

منذ أن كان السعدي طالبا، كان حينها شيخا، فلما رأى زملاؤه في الدراسة تفوقه عليهم ونبوغه تتلمذوا عليه، وصاروا يأخذون عنه العلم، وهو في سن البلوغ، فصار في هذا الشباب المبكر متعلما ومعلما، فتتلمذ على يديه عدد كبير من الطلاب الذين أصبح منهم علماء، وقضاة، وطلبة علم عم نفعهم، فمن هؤلاء التلاميذ:

١- سليمان بن إبراهيم البسام، درس في المعهد العلمي، وعين قاضيا فرفض.

٢- محمد بن عبدالعزيز المطوع، تولى القضاء في المجمعة ثم في عنيزة.

٣- عبدالله بن عبدالرحمن البسام، عضو هيئة التمييز بالمنطقة الغربية.

٤ – محمد بن منصور الزامل، درس بمعهد عنيزة العلمي.

٥ – علي بن محمد الزامل، مدرس في معهد عنيزة، وهو أنحى أهل نجد في زمنه.

٦ – محمد بن صالح العثيمين، وهو العلامة المعروف، درس في المعهد العلمي، وكان عضو هيئة كبار العلماء، وخلف السعدي على إمامة الجامع بعنيزة.

٧ – عبدالله بن عبدالعزيز بن عقيل، عضو الإفتاء، ورئيس الهيئة العلمية المستقلة بعد وفاة سماحة رئيس القضاة، وهو ما زال حيا.

وغيرهم كثير، فقد عد البسام من أسماء تلاميذ السعدي مائة وخمسين طالبا.

٥) مكانته العلمية وطريقته في التدريس:

لقد كان الشيخ عبد الرحمن السعدي من الناحية العلمية هو كل شيء في عنيزة؛ فقد كان العالم المعلم والإمام والخطيب والمفتي والواعظ والقاضي وصاحب مدرسة دينية له فيها تلاميذ منتظمون.

انتهى إليه الإفتاء والتدريس في عنيزة سنة ١٣٥١هـ بعد وفاة شيخه الشيخ صالح القاضي وكان الشيخ – رَحِمَهُ ٱللَّهُ – حسن التعليم له طريقة مثلى فيه إذ أنه كان يجمع الطلبة على كتاب واحد في الجلسة وبعد الفراغ من الجلسة يطلب من ثلاثة منهم إعادة ما استحضروه من شرحه الذي ألقاه عليهم وقصده بذلك شد انتباههم واختبار قوة حافظتهم وسرعة فهمهم وكان يعطي الجوائز الثمينة على حفظ المتون وكان يناقش

الطلبة فيما مضى من دروس وكان يقيم بينهم المناظرات ويشاورهم في الكتب التي يريدون قراءتها عليه.

وقد عُين مشرفًا على المعهد العلمي بعنيزة وكان تعيينه براتب شهري قدره ألف ريال، ولكن الشيخ أرسل إلى رئاسة المعاهد العلمية أنه على استعداد للإشراف على المعهد حسبة لوجه الله تعالى وإنه لا يريد أن يكون له أجر مادي وقبلت الرئاسة شاكرة له هذا الصنيع الذي لا يصدر إلا من عالم زاهد يبتغي وجه الله.

٦) ثناء العلماء عليه:

لقد كان للشيخ السعدي ذا مكانة علمية مرموقة عند من عرفه، أو قرأ موروثه المتنوع، ولذا فقد أثنى عليه العلماء؛

فقال عنه عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ: «العلامة الورع الزاهد تذكرة السلف»، وقال الشيخ ابن باز في الثناء عليه: «وكان قليل الكلام، إلا فيما تترتب عليه فائدة، جالسته غير مرة في مكة والرياض، وكان كلامه قليلا إلا في مسائل العلم، وكان متواضعا، حسن الخلق، ومن قرأ كتبه عرف فضله وعلمه، وعنايته بالدليل».

وقال محمد حامد الفقي: «لقد عرفت الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي من أكثر من عشرين سنة، فعرفت فيه العالم السلفي المدقق المحقق الذي يبحث عن الدليل الصادق، وينقب عن البرهان الوثيق، فيمشي وراءه لا يلوي على شيء... عرفت فيه العالم السلفي، الذي فهم الإسلام الفهم الصادق، وعرفت فيه دعوته القوية الصادقة إلى الأخذ بكل أسباب الحياة العزيزة القوية الكريمة النقية».

وقال الشيخ العثيمين: «إن الرجل قل أن يوجد في عصره في عبادته وعلمه وأخلاقه. . وكان صبورا على ما يلم به من أذى الناس».

٧) مؤلفاته:

صنف الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مؤلفات كثيرة نافعة في جميع العلوم والفنون؛ فصنف في التفسير، وعلوم القرآن:

١ – تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان.

٢ – تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن.

٣ – القواعد الحسان لتفسير القرآن.

٤ – المواهب الربانية من الآيات القرآنية. وهو كتابنا هذا.

وصنف في العقيدة وأصول الدين:

٥- القول السديد شرح كتاب التوحيد.

٦- الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين.

٧- انتصار الحق.

٨- التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة.

٩- تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه عليه القصيمي في أغلاله.

وصنف في الفقه، وأصوله، والقواعد الفقهية:

١٠- الإرشاد إلى معرفة الأحكام.

١١- تحفة أهل الطلب بتجريد قواعد ابن رجب.

١٢- جهاد الأعداء ووجوب التعاون بين المسلمين.

١٣- حكم شرب الدخان.

١٤- رسالة لطيفة جامعة في أصول الفقه المهمة.

١٥- رسالة مختصرة في أحكام الحج والعمرة المهمة.

١٦- السياسة الشرعية.

١٧- القواعد الفقهية.

١٨- القواعد والأصول الجامعة والفروق والتقاسيم البديعة النافعة.

١٩- المناظرات الفقهية.

٢٠- منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين.

ومن مصنفاته ورسائله كذلك:

٢١- نصيحة مختصرة في الحث على التمسك بالدين والتحذير من المدارس الأجنبية.

٢٢- الوسائل المفيدة للحياة السعيدة.

٢٣ – الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة.

٢٤ – الدرة المختصرة في محاسن الدين الإسلامي.

٢٥ – الدين الصحيح يحل جميع المشاكل.

٢٦ – التعليق وكشف النقاب على نظم قواعد الإعراب.

٢٧- فوائد في آداب المعلمين والمتعلمين.

٢٨ – مجموع الخطب في المواضيع النافعة.

٢٩ – الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة.

٣٠ – الفتاوى السعدية.

٨) مرضه ووفاته:

أصيب عام ١٣٧١هـبمرض ضغط الدم وضيق الشرايين، وكانت أعراضه تبدو بعض الساعات في الكلام فيقف عن الكلام فجأة ثم يكمل كلامه، وكان هذا يتكرر كثيرًا في قراءته للقرآن، وظل المرض يعتريه المرة بعد الأخرى وهو صابر عليه مدة خمس سنوات، فزاد عليه وسافر إلى لبنان لعلاجه عام ١٣٧٢ هـ، على نفقة الحكومة السعودية وبقي في لبنان شهرًا، فنصحه الأطباء بالراحة وقلة التفكير والإجهاد، فعاد إلى بلاده ولم يصبر على ترك العلم فقام به تعليما وتأليفا وبحثا، لأن هوايته العلمية تلح عليه في ذلك، فعاد إليه المرض أشد مما كان فلما كان في شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٧٦هـأحس بالذي فيه وكان معه مثل البرد والقشعريرة وفي ليلة الأربعاء ٢٢ من الشهر المذكور عام ١٣٧٦ هـبعد فراغه من الدرس الذي كان يقوم بإلقائه على الجماعة في المسجد أحس بثقل وضعف حركة بعد الصلاة وفراغها فأشار إلى بعض تلامذته أن يمسك بيده ويذهب معه إلى داره ففعل فهرع أناس من الحاضرين فلم يصل إلى داره إلا وقد أغمي عليه، ثم أفاق بعد ذلك فترة بسيطة فحمد الله وأثنى عليه، ثم طمأن الحاضرين من أهله، وهون عليهم أمر الدنيا، وتكلم معهم بكلام حسن طيب ثم عاوده الإغماء فلم يتكلم بعد ذلك فلما أصبحوا صباح الأربعاء دعوا الطبيب فقرر أنه نزيف في المخ وإن لم يتدارك فورًا فإنه يموت فأبرقوا إلى جلالة الملك.

فأصدر أمره عاجلا بكل ما يلزم، وأرسل طائرة فورا وفيها مهرة من الأطباء

والعلاجات إلى مدينة عنيزة ولكن الجو كان ملبدًا بالغيوم والرعد والبرق والعواصف الشديدة فلم تستطع الطائرة الهبوط على أرض المطار، فتوفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قبل فجر الخميس الموافق ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٦هعن عمر يقارب (٦٩) عامًا قضاها في العلم تعلما وتعليما وإفتاء وتأليفا.

فأصيب الناس لموته فانهمرت الدموع وجفت القلوب، وصلى عليه الناس بعد صلاة ظهر يوم الخميس في حشد عظيم لم يشهد في عنيزة له مثيل فامتلأ الجامع بالمصلين والمشيعين وانهمرت العيون بالدموع وانطلقت الألسن بالترحم عليه والدعاء له بالمغفرة والرضوان فلما صلوا عليه حملوه فوق الأعناق بزحام شديد إلى مقبرة الشهوانية المعروفة بمدينة عنيزة.

فبعد ذلك هتفت التعازي بالبرقيات من المعزين من جميع الجهات ورثي بمراث كثيرة يصعب عدها وخلف ثلاثة أبناء هم: عبد الله ومحمد، وأحمد.

غفر الله للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ورحمه وعفا عنه فإنه كان من العلماء العاملين الورعين .

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

مقدمة المصنف

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وآله وصحبه.

هذه فوائد فتح اللهُ عليّ بها في هذا الشهر المبارك، نسأله المزيد من كرمه آمين.

التسليم لله عزّ وَجلَّ أساس النجاة

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾ لما كان قوله: ﴿أَسۡلَمَا﴾ توطيناً لنفسه على أمر الله، وعزماً مقروناً بالإخلاص، والعزم ربما تخلّف عنه الفعلُ؛ ذكر الفعل بقوله: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾[1] فاجتمع العزم والفعل، ولكن تخلف أثر الفعل – وهو وقوع الذبح – فذكر تعالى أنه أبدله بذِبحٍ عظيمٍ فداء له.

التيسير في الشريعة الإسلامية

قوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾ يدل على أن المعتبر مجرد العدة لا مقدارها في الطول والقصر، والحر والبرد، ولا وجوب الفور وعدمه، ولا ترتيب ولا تفريق، ويقرر هذا قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ﴾ [البقرة: ١٨٤] أعم من قوله: (في سفر) ليدخل فيه من أقام

---

(١) تله: صرعه على جنبه، يقال: تَلَلْتُه أتله تَلاً: صرعته.

في بلد أو برية ولم يقطع سفره، بل هو على سفر؛ وإن لم يكن في سفر[١]

---

(١) اختلف أهل العلم في المسافة التي يجوز معها الأخذ بالرُّخص الشرعية في صيام الفرض والقصر في الصلاة الرباعية وغيرها:-

فذهب الجمهور من الشافعية والمالكية والحنابلة إلى أن السفر الذي يبيح الرخص للمسافر مسافته **أربعة برد**: أي ما يعادل مسيرة يومين؛ واستدلوا بحديث ابن عباس مرفوعاً: «يا أهل مكة لا تقصروا الصلاة في أقل من أربعة برد من مكة إلى عسفان».

قلت: وما استدلوا به **حديث منكر** أخرجه الدارقطني (١/ ٣٨٧)، ومن طريقه البيهقي (٣/ ١٣٧)؛ قال الحافظ في «الفتح» (٢/٦٦٠): «وهذا إسناد ضعيف من أجل عبد الوهاب»اهـ.

قلت: وعبد الوهاب بن مجاهد بن جبر: **متروك الحديث** بل كذّبه الثوريُّ، وقال الحاكم: «روى أحاديث موضوعة»، وقال ابنُ عديّ في «الكامل» (٥/ ١٩٣٢): «عامة ما يرويه لا يتابع عليه»، وضعفه النسائي وأحمد وأبو حاتم، وقال عليٌّ وابنُ معين: «لا يكتبُ حديثه وليس بشيء».

والراوي عنه هو إسماعيل بن عياش: وهو وإن كان صدوقًا إلا أنه كان إذا روى عن أهل الحجاز وأهل العراق جاء بالمناكير، وضعفه بعضهم مطلقاً، والصواب أنه صدوقٌ في نفسه، ولكن الضعف آتٍ من روايته عن الحجازيين، ووثقه بعضهم مطلقاً، والصواب ما قدمناه، والشاهد: أن عبد الوهاب من الحجازيين فزاد ابن عياش الحديث ضعفًا بروايته لهذا الحديث عن عبد الوهاب.

والراجح في هذه المسألة: أن كل ما يطلق عليه سفر **عرفاً** تُقصر فيه الصلاة ويفطر الصائم إن أراد الفطر وغير ذلك من الرخص الشرعية التي منحها الله للمسافر؛ لضعف الحديث الوارد، كما أنه قد ورد عن عدد من الصحابة أنهم كانوا يقصرون الصلاة إذا بلغت المسافة أربعة برد بل ورد عن ابن عباس روايات بالقصر في مسافة أقل من ذلك.

قال العلامة عبد العزيز الطريفي في «التفسير والبيان» (١/٢٠٩): «والسَّفَرُ: هو ما سُمِّيَ سَفَرًا عُرْفًا، وقد تبايَنَتْ أقوالُ السَّلَفِ في حدِّه، لِتبايُنِهم في حدِّ العُرْفِ، وهذا مِن السَّعَةِ

=

يود المجرم أن يفتدي نفسه يوم القيامة، بينما افتدى المؤمن نفسه في الدنيا بالتقوى والعمل الصالح

قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١﴾ الآيات.

فيه أن غير المجرم لا يود ذلك؛ لأنه قد افتدى في الدنيا من عذاب يومئذٍ بالتقوى والإيمان، وإنما هو في هذا اليوم لا يحزنه الفزع الأكبر، ويؤمل اجتماعه بمن صلح من آبائه وأبنائه وأحبابه في جنات النعيم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٨﴾ [المعارج: ٣٢]

أي يكونون لذلك رعاة متعاهدين، مجتهدين في كل سبب تقوم به الأمانات والعهود، وتكمل وتتم، مبعدين عن كل سبب يناقض ذلك[١]، وكذلك قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ

=

والرَّحْمةِ»اهـ. فبيّن **حفظه الله** الحكمة في حد السفر بالعُرف.

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والصحيح أنه لا حد للسفر بالمسافة؛ لأن التحديد كما قال صاحب «المغني»: يحتاج إلى توقيف».اهمن الشرح الممتع (٤/ ٤٩٧). وهذا هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وانظر: مجموع الفتاوى (٢٤/ ١٢، ١٩، ٣٥، ٤٧، ٤٨). والله تعالى أعلم بالصواب.

(١) **قال شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جاء الكتاب والسنة بالأمر بالوفاء بالعهود، والشروط، والمواثيق والعقود، وبأداء الأمانة، ورعاية ذلك والنهي عن الغدر، ونقض العهود والخيانة والتشديد على من يفعل ذلك»اهـ من **مجموع الفتاوى (٢٤٥/٢٩-٢٤٦)**.

بِشَهَدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [المعارج: ٣٣].

إتمام الله عَزَّ وَجَلَّ نعمته على رسوله ﷺ

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ [المدثر: ١، ٢]

نبّه الله تعالى فيها على حال رسوله وكماله، وإتمام نعمة الله عليه، وكم بين ابتداء أمره وانزعاجه من الوحي، وتدثره[1] من شدة ما لقي، وبين آخر أمره حين أتم اللهُ أمورَه كلها؛ ولهذا أمره بتكميل نفسه وتكميل غيره، وأرشده إلى ما ينال به ذلك: وهو القيام التام على وجه النشاط والتعظيم لربه، وتكبيره في باطنه، وتطهير أعماله وثيابه الظاهرة، وترك كل شر ودنس، واستعمال روح الأعمال، وهو الإخلاص في كل شيء، حتى في العطاء؛ فلهذا قال: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦﴾ [المدثر: ٦].

ثم أرشده إلى ما يعينه على كل الأمور، وهو الصبر لوجه الله، فقال: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾ [المدثر: ٧] ثم تكفل له بحفظه من الأعداء، وحفظ ما جاء به بتوعدهم بالعذاب، خصوصاً لأكبرهم عناداً وأعظمهم عداوة، وهذا تمام النعمة.

فائدة جليلة في أحكام العدة

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ

---

(١) المتدثر: هو المتلفف في الدثار، وهو ما يكون من الثياب فوق الشعار.

أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٢٨] وكذلك قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ﴾ الآية [البقرة: ٢٣٤].

التربص المذكور هو: الانتظار والمكث في العدة[(١)]، فما الفائدة في قوله: ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ مع أنه يغني قوله: (يتربصن ثلاثة قروء[(٢)]) و(يتربصن أربعة أشهر وعشراً)؟.

فاعلم أن في قوله: ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ **فائدة جليلة وهي**: أن هذه المدة المحدودة للتربص

---

(١) قال الشنقيطي في أضواء البيان (١٤٩/١): «ظاهِرُ هَذِهِ الآيَةِ شُمُولُها لِجَمِيعِ المُطَلَّقاتِ، ولَكِنَّهُ بَيَّنَ في آياتٍ أُخَرَ خُرُوجَ بَعْضِ المُطَلَّقاتِ مِن هَذا العُمُومِ، كالحَوامِلِ المَنصُوصِ عَلى أنَّ عِدَّتَهُنَّ وضْعُ الحَمْلِ، في قَوْلِهِ: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ﴾ [الطلاق: ٤] وكالمُطَلَّقاتِ قَبْلَ الدُّخُولِ المَنصُوصِ عَلى أنَّهُنَّ لا عِدَّةَ عَلَيْهِنَّ أصْلًا، بِقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [الأحزاب: ٤٩].

أمّا اللَّواتِي لا يَحِضْنَ، لِكِبَرٍ أوْ صِغَرٍ فَقَدْ بَيَّنَ أنَّ عِدَّتَهُنَّ ثَلاثَةُ أشْهُرٍ في قَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ﴾».اهـ

(٢) **القرء** في لغة العرب: يطلق على الزمن، سواء كان حيضًا أو طهرًا، فيقال: أقْرَأَتِ المَرْأَةُ: إذا دنا حيضها، وأَقْرَأَتْ: إذا دنا طهرها، فهو من الأسماء المشتركة، يقول بهذا أهل اللغة، كأبي عبيد، والأصمعي، وأبي عمرو بن العلاء، وابن قتيبة، وابن جرير وغيرهم. انظر: مجاز القرآن لأبي عبيد (١/ ٧٤)، التفسير والبيان (٤٢٥/١)، معاني القرآن للنحاس (١٩٦/١)، أضواء البيان للشنقيطي (١٤٩/١)، تفسير الطبري (البقرة آية ٢٢٨).

مقصودة لمراعاة حق الزوج والولد، ومع القصد لبراءة الرحم[١].

فلا بد من أن تكون في هذه المدة منقطعة النظر عن الرجال، محتسبة على زوجها الأول، لا تُخطب ولا تَتجمل للخُطاب، ولا تعمل الأسباب في الاتصال بغير زوجها، ويدل على هذا المعنى قوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٤] أي من التجمل والتبهي، ولكن بالمعروف على غير وجه التبرج المحظور.

ويدل على هذا قوله في الآية الأخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة:٢٤٠] فلم يأمر هذه المرة أن يتربصن بأنفسهن، بل جعلها وصية تتمتع بها المرأة سنة بعد موت زوجها جبراً لخاطرها؛ ولهذا رفع الحرج عنها بالخروج، وأنها بعد الخروج لها التجمل المعروف، وقبل ذلك، كما جبر الورثة قبلها لأجل زوجها، فعليها العدل وترك التجمل، وهذا

---

(١) أظهر الله تعالى لنا بعض الحكم من تشريعاته وأخفى عنا بعضها؛ لأمور تقتضيها حكمته – جل شأنه – فليس لنا أن نُعطل أحكام الله التشريعية لمجرد انتفاء علة التشريع، فهناك علل أخرى لا يعلمها إلا الله، وأمر العدة هذا أمر تعبدي تشريعي يجب علينا العمل به.

فإذا جاء من يقول: إن التقدم العلمي مقياس في الحكم على التشريعات مثل أن نقول بأن الأشعة تظهر براءة الرحم من الحمل، فللمرأة أن تتزوج فور طلاقها البائن أو موت زوجها ما دام الرحم خال.

فنقول لهؤلاء: براءة الرحم من الحمل ليس هو العلة الوحيدة من العدة، بل هو أمر تعبدي يجب علينا وعلى جميع المسلمين العمل به، وإن انتفت العلة التي نعلمها وإن هناك من العلل ما زال يكتشفها العلم الحديث إلى اليوم.

يبين أن الآية الأولى ليست بناسخة لهذه الآية[١]، بل تلك عدة لازمة، وهذه وصية تمتيع غير متحتمة، والله أعلم.

الإيمان والاحتساب يخفف المصائب

الإيمان والاحتساب يخفف المصائب، ويحمل على الصبر؛ دليله قوله تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ [النساء: ١٠٤] أي: فليكن صبركم أعظم ومصيبتكم أخف، كما أن عدم الإيمان يصعب المصيبة ويحمل على الجزع؛ دليله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ﴾ [آل عمران:١٥٦].

ومما يدل على الأمرين قولُه تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ

---

(١) القول بالنسخ هو قول جمهور أهل العلم وعامة السلف كعثمان وابن عباس وعطاء وغيرهما؛ ومن ذلك ما رواه البخاري في «صحيحه» (٤٥٣٠) عن ابن الزُبَيْر قال: قُلْتُ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ قَالَ: «قَدْ نَسَخَتْهَا الْآيَةُ الْأُخْرَى»، فَلِمَ تَكْتُبُهَا؟ أَوْ: تَدَعُهَا؟ قَالَ: «يَا ابْنَ أَخِي، لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ».

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَمَعْنَى هَذَا الْإِشْكَالِ الَّذِي قَالَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ لِعُثْمَانَ: إِذَا كَانَ حُكْمُهَا قَدْ نُسِخَ بِالْأَرْبَعَةِ الْأَشْهُرِ فَمَا الْحِكْمَةُ فِي إِبْقَاءِ رَسْمِهَا مَعَ زَوَالِ حُكْمِهَا، وَبَقَاءِ رَسْمِهَا بَعْدَ الَّتِي نَسَخَتْهَا يُوهِمُ بَقَاءَ حُكْمِهَا؟ فَأَجَابَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ هَذَا أَمْرٌ تَوْقِيفِيٌّ، وَأَنَا وَجَدْتُهَا مُثْبَتَةً فِي الْمُصْحَفِ كَذَلِكَ بَعْدَهَا فَأُثْبِتُهَا حَيْثُ وَجَدْتُهَا».اهـ من تفسير القرآن العظيم (٦٥٨/١).

إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ الآيات [الحديد: ٢٢، ٢٣]، وقولُه تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١] وغير ذلك من الآيات.

الأصل الجامع والمقصود الأعظم في كل العبادات هو الذكر

شرع الله الدين والعبادات والأوامرَ والنواهي لإقامة ذِكره، ولهذا يذكر أن العبادات ناشئة عن ذكره، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥].

فجعل الصلاة(١) ناشئة عن الذكر ومسَبَّبة عنه، كما جعل الصلاة لإقامة ذكره، فقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١٤]، وقال في ترك الذنوب والاستغفار منها:

---

(١) اختلف أهل العلم في المراد بالصلاة هنا:

فقال بعضهم: المراد: صلى الصلوات الخمس.

وقال بعضهم: المراد بالصلاة الدعاء.

وقال بعضهم: صلى صلاة العيدين. انظر: تفسير الطبري (١٥٧/٣٠).

والصواب هنا هو القول الأول والله أعلم وهو قول المصنف وابن جرير الطبري وجمهور المفسرين، وهو مروي عن ابن عباس.

وقد اعتُرض على القول الثاني بأنه صرف للفظ عن ظاهره بدون دليل يستند عليه، واعتُرض على الأخير بأن سورة الأعلى مكية، وصلاة العيد فُرضت بالمدينة.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥] فجعل الاستغفار ناشئاً عن الذكر؛ فدل ذلك على أن **الذكر لله هو الأصل الجامع الذي يتصف به المؤمن الكامل**؛ فيصير الذكر صفة لقلبه، فيفعل لذلك المأمورات ويترك المنهيات؛ ناشئاً عن تعظيم الله تعالى وذكره، وهو دليل على ذلك **وهو أعظم المقصودات في العبادات**.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ الآيات [آل عمران: ١٩٠،١٩١].

فكل من كان في عبادة فهو في ذكر الله، ومن ترك منهياً لله فهو في ذكر الله، وهذا هو المعنى الذي خلق اللهُ لأجله، وشرع الشرائع لأجله، وجعل النعم الظاهرة والباطنة مقصودة لأجله، ومعينة عليه، فنسأله تعالى أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، ويجعلنا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، آمين.

فصل

في معرفة الراسخين في العلم

يقول تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [النساء: ١٦٢].

الراسخ في العلم الذي مدحه الله هو: المتمكن في العلم النافع، المزكي للقلوب؛ ولهذا وصف الله الراسخين في العلم بأنهم يؤمنون بمحكم الآيات ومتشابهها[١]، ويردّون المتشابه المحتمل للمحكم الصريح، فيؤمنون بهما جميعاً، وينزلون النصوص الشرعية منازلها، ويعلمون أنها كلها من عند الله، وأنها كلها حق، وإذا ورد عليهم منها ما ظاهره التعارض اتهموا أفهامهم، وعلموا أنها حق لا يتناقض؛ لأنه كله من عند الله، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، وهم دائماً يتضرعون إلى ربهم في صلاح قلوبهم، واستقامتها وعدم زيغها، ويعرفون الله عليهم بعظيم هدايته، وتمام البصيرة التي مَنَّ الله بها عليهم.

ومن صفاتهم التي وصفهم الله بها: أنهم يدورون مع الحق أينما كان، ويطلبون الحقائق حيثما كانت، ولهذا وصف الله الراسخين من أهل الكتاب بأنهم يؤمنون بما أنزل الله على جميع أنبيائه، ولا يحملهم الهوى على تكذيب بعض الأنبياء وبعض الحق، فقال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ الآية [النساء: ١٦٢].

---

(١) **الآيات المحكمات**: أي الواضحات في الدلالة ليس فيها شبهة ولا إشكال.

متشابه الآيات: أي التي قد يلتبس معناها على كثير من الأذهان، أو يتبادر إلى بعض الأفهام غير المراد منها؛ لكون دلالتها مجملة.

توطين النفس على عدم الانقياد للحق

لا ينفع معه تذكير ولا وعظ[١]

قال تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الإسراء: ٤٧]؛ ولهذا يذكر الله هذا المعنى في سياق الإخبار عن عدم إيمان الكفار وانقيادهم، وإذا وصل الإنسان إلى هذه الحالة فكما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، ويذكر تعالى أن الذي ينتفع بالتذكير هو الذي يطلب الحق والإنصاف، فهذا إذا تبين له الحق انقاد له، والله أعلم.

البشارة عن الشهداء حث على الجهاد

لما قُتِل من قُتِل من الصحابة شهداء في سبيل الله؛ أنزل الله على المسلمين: «**بلغوا إخواننا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه**»[٢]، فتلوها مدة فأنزل الله بدلها: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

---

(١) هذا العنوان من أصل كلام الشيخ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٨٠١)، ومسلم (٦٧٧).

وفي هذا حكمة ظاهرة، فإنه مناسب غاية المناسبة أن يخبر الله عنهم إخوانهم وأصحابهم وأحبابهم بخصوصهم؛ ليفرحوا وتطمئن قلوبهم، وتسكن نفوسهم، ويقدموا على الجهاد، فلما حصل هذا المقصود، وكان هذا الحكم ثابتاً - لمن قتل في سبيل الله إلى يوم القيامة - وكان من بلاغة القرآن وعظمته أنه يخبر بالأمور الكلية، ويذكر الأصول الجامعة؛ أنزل الله هذه الآيات العامات المحكمات حكمة بالغة، ونعمة من الله على عباده سابغة.

ونظير هذا أنه كان مما يتلى: «**الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة...**»[1] إلخ،

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ١٨٣) والنسائي في «الكبرى» (٧١٤٥)، من طريق محمد بن جعفر، والدارمي (٢٣٢٣) من طريق محمد بن يزيد الرفاعي، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢١١/٨)، من طريق أبي داود، الحاكم في «المستدرك» (٣٦٠/٤) من طريق عبد الله كلهم عن شعبة عن قتادة، عن يونس بن جبير، عن كثير بن الصلت عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح» وأقره الذهبي.

قلت: وهو كذلك؛ أما عنعنة قتادة فإنها هنا لا تضر فقد جُبرت بأمرين:

- **أحدهما**: رواية شعبة لهذا الحديث عنه؛ فهو لا يحمل عنه إلا ما صرح في بالتحديث، وهو القائل: «كفيتكم تدليس ثلاثة» وذكر منهم قتادة.
- **أما الأمر الثاني**: فهو أن الإسناد بعد قتادة، وهو لو دلّس لكان السند أعلى.

وقد صح هذا الأثر موقوفاً أيضاً من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أخرجه مالك في «الموطأ» (٨٢٤/٢)، والشافعي في «اختلاف الحديث» (ص٢١٢)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ١٦١ – ١٦٢)، وابن ماجه (٢٥٥٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٢٧١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٢١٢ – ٢١٣)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٠٧/١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥٤/١، ١٧٤/٢)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٤٠٣/٨).

فنسخ لفظها وجعل الشارع الرجم بوصف الإحصان؛ لأنه هو الصفة الموجبة لا وصف الشيخوخة[١]، ولكن في ذِكر الشيخ والشيخة من بيان شناعة هذه الفاحشة - ممن وصل إلى هذه الحال وقبحها ورذالتها – ما يوطن قلوبَ المؤمنين في ذلك الوقت الذي كانت القلوب يصعب عليها هذا الحكم على الزنى، الذي كانوا آلفين له في الجاهلية؛ فلم يفجأهم بحكم الرجم دفعة واحدة، بل حكم به على الشيخ والشيخة اللذين ماتت شهوتهما، ولم يبق لهما إرادة حاملة عليه إلا خبثُ الطبع وسوءُ النية، فلما توطنت نفوسهم على قبحه شرع لهم الحكم العام، والله أعلم.

الإيمانُ النافع

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ الآية [الأنعام: ١٥٨].

فسّر النبي ﷺ ذلك بطلوع الشمس من مغربها[٢]، فالأحاديث الصحيحة دلت على أن أول الآيات طلوعُ الشمس من مغربها[٣]، والآية دلت على أن أي آية من آيات

---

(١) وصف **الشيخوخة** هنا معناه: الشيب، قال يحيى سمعت مالك يقول: «قوله الشيخ والشيخة، يعني الشيب والثيبة فارجموهما البتة».اهـ من الموطأ (٢/ ٨٢٤).

ولفظ **البتة**: من البت وهو القطع أي: فارجموهما قطعاً.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٤٦٣٥)، ومسلم (١٥٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال أبو زرعة العراقي: «وهذا يتعين القول به لصحة الحديث»، ونقل السمعاني الإجماع على أن هذا المعنى هو المراد.

(٣) ومن ذلك؛ ما أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٩٤١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص =

الله التي هي مقدمات الساعة - وبها يكون الإيمان اضطرارياً - أتت، فإنه لا ينفع الإيمان؛ لأنه إنما ينفع إيمانُ الاختيارِ وإيمانُ الغيب، وإذا أتى بعضُ الآيات صار الإيمان بشهادةٍ واضطرارٍ فلا ينفع، فالآية دلت على التعليل، والأحاديث دلت على الأولية، والله أعلم.

أداء الدَّيْن فريضة إلزامية
أما الوصية فمنحة شرعية

قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ [النساء:١١]، والآية الأخرى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ [النساء: ١٢]، والأخرى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۚ﴾ [النساء: ١٢] فاتفقت على إطلاق الدَّين وتقييد الوصية بحصول الإيصاء بها، وهذا يدل على أن الدَّين مقدَّم على حقوق الورثة وغيرهم مطلقاً، سواء وصى المَدين بقضائه أو لم يُوصِ، وسواء كان ديناً لله أو للآدميين، وسواء كان به وثيقة أم لا.

[**شرط الوصية**]: وأما الوصية فشَرَطَ الله في ثبوتها أن يوجد الإيصاء بها، فإن لم يوص الميت لم يجب على الورثة شيء من التركة لغير الدَّين، ولا بد من تحقق الإيصاء، فلو وُجد منه قولٌ في حالِ عدم شعور وعلم بما أوصى به؛ لم يتحقق أنه أوصى.

[**قدرها**]: ودلت الآيات على ثبوت الوصية التي يوصي فيها الميت، وقيدتها السُّنة

=

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ولفظه: ««إن أول الآيات خروجا، طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى وأيهما ما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على أثرها قريبا».

بأنها الثلث فأقل[١] لغير وارث[٢]، بل آيات المواريث، وتقدير أنصباء الورثة، مع قوله في آخرها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٣، ١٤] **تدل على أن الوصية لوارث من باب تعدي الحدود.**

ما عند الله لا يُنال إلا بطاعته

فوائد: لا يمنع الله تعالى عبدَه شيئاً إلا فتح له باباً أنفع له منه وأسهل وأولى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النساء:

---

(١) يشير المصنف – رَحِمَهُ ٱللَّهُ – إلى ما أخرجه البخاري (٦٧٣٣)، ومسلم (١٦٢٨) من حديث عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: مرضت بمكة مرضاً فأشفيت منه على الموت فأتاني النبي ﷺ يعودني، فقلت: يا رسول الله إن لي مالا كثيرا وليس يرثني إلا ابنتي، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: «لا»، قال: قلت: فالشطر؟ قال: «لا»، قلت: الثلث؟ قال: «**الثلث كبير... الحديث**». وفي لفظ مسلم: «**نعم، والثلث كثير**».

(٢) **ولا تكون الوصية لوارث؛** لنهي النبي ﷺ عن ذلك فقال ﷺ: «**لا وصية لوارث**» أخرجه أحمد (٢٦٧/٥)، وأبو داود (٣٥٦٥)، والترمذي، (٢١٢٠) وابن ماجه (٢٧١٣)، والبيهقي (٢٦٤/٦) وسعد بن منصور (٤٢٧) والطيالسي (١١٢٧)، كلهم من طريق: إسماعيل بن عياش ثنا شرحبيل ابن مسلم الخولاني عن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، وهو **حسن؛** لأجل إسماعيل بن عياش فهو صدوق في نفسه، وروايته عن شرحبيل هنا صحيحة لأنه شامي فهو بلديه، وأهل العلم النقاد إنما تكلموا في رواية إسماعيل عن أهل الحجاز، أما روايته عن الشاميين فقووها كما قال أحمد والبخاري وغيرهما.

٣٢].

فمنع الله مِنْ تمني ما فضّل الله به بعض العبيد على بعض، وأخبر أن كل عاملٍ مِن الرجال والنساء له نصيب وحظ من كسبه، فحض الصنفين على الاجتهاد في الكسب النافع، ونهاهم عن التمني الذي ليس بنافع، وفتح لهم أبواب الفضل والإحسان، ودعاهم إلى سؤال ذلك بلسان الحال ولسان المقال، وأخبرهم بكمال علمه وحكمته.

وأن من ذلك: أنه **لا يُنال ما عنده إلا بطاعته**، ولا تُنال المطالب العالية إلا بالسعي والاجتهاد، والله الموفق لكل خير.

الزهد في الدنيا من شيم أهل العقل

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣١].

تضمنت التزهيد في الدنيا، وأن غضارتها[١] وحسنها الذي متع به المترفين ليس لكرامتهم عليه، وإنما ذلك للابتلاء والاختبار؛ لينظر أيهم أحسن عملاً، وأيهم أكمل عقلاً، فإن **العاقل هو الذي يؤثر النفيس الباقي على الدني الفاني**، ولهذا قال: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ أي الذي أعده للطائعين الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم،

(١) **غضارتها**: طيبُ عيشها. انظر: الصحاح (٢/ ٧٧٠).

ولم يغرهم رونق الدنيا وبهجتها الزائلة، بل نظروا إلى باطن ذلك، حين نظر الجهال إلى ظاهرها، وعرفوا المقصود، ومقدار التفاوت، ودرجات الأمور فرزق الله لهؤلاء خير وأبقى، أي أكمل في كل صنف من أصناف الكمال، وهو مع ذلك باق لا يزول.

وأمّا مَا متَّع به أهل الدنيا فزهرة الحياة الدنيا، تمر سريعاً وتذهب جميعاً؛ ولهذا نهى الله رسوله أن يمد عينيه إلى ما متع به هؤلاء.

ومد العين: هو التطلع والتشرف لذلك، لا مجرد نظر العين، وإنما هو نظر القلب، ولهذا لم يقل: (ولا تنظر عيناك إلى ما متعنا به أزواجاً) الآية، فمد العين متضمن لاستحسان القلب وتطلعه إلى ذلك.

ومثل قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [الكهف: ٢٨] فهذه الآية بينت المراد من تلك الآية، وأن نظر العين المقرون بإرادة زينة الحياة الدنيا.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الحجر: ٨٧،٨٨] فنبهه الله تعالى على الاغتباط بما آتاه الله من المثاني والقرآن العظيم، وامتن عليه بذلك، وأنه الخير والفضل والرحمة الذي يحق الفرح والسرور به؛ فإن ذلك خير مما يجمع أهل الدنيا ويتمتعون به، وإنما الذين ينظرون ويغبطون هم المؤمنون الذين لم يغتروا بما اغتر به المعرضون؛ فلهذا قال: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾.

تقديم الغايات والمقاصد على الوسائل

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ إلى آخر قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة الآيات من ٦٧ إلى ٧٤].

لعل من فوائد تأخير ذِكر ذلك القتيل عن ذِكر الأمر بذبح البقرة في قصة موسى مع بني إسرائيل[1]؛ لأن السياق سياق ذم لبني إسرائيل، وتعداد ما جرى لهم مما يقرر

---

(١) وردت كثير من الآثار الصحيحة في قصة سيدنا موسى – عليه السلام – مع بني إسرائيل:

منها ما ثبت عن عبيدة السلماني قال: «كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ عَقِيمٌ أَوْ عَاقِرٌ، قَالَ: فَقَتَلَهُ وَلِيُّهُ، ثُمَّ احْتَمَلَهُ، فَأَلْقَاهُ فِي سِبْطٍ غَيْرِ سِبْطِهِ. قَالَ: فَوَقَعَ بَيْنَهُمْ فِيهِ الشَّرُّ، حَتَّى أَخَذُوا السِّلَاحَ. قَالَ: فَقَالَ أُولُو النُّهَى: أَتَقْتَتِلُونَ وَفِيكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: فَأَتَوْا نَبِيَّ اللَّهِ، فَقَالَ: اذْبَحُوا بَقَرَةً. فَقَالُوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾ [البقرة: ٦٨] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة: ٧١] قَالَ: فَضُرِبَ فَأَخْبَرَهُمْ بِقَاتِلِهِ. قَالَ: وَلَمْ تُؤْخَذِ الْبَقَرَةُ إِلَّا بِوَزْنِهَا ذَهَبًا. قَالَ: وَلَوْ أَنَّهُمْ أَخَذُوا أَدْنَى بَقَرَةٍ لَأَجْزَأَتْ عَنْهُمْ، فَلَمْ يُورَّثْ قَاتِلٌ بَعْدَ ذَلِكَ».

أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٣٦)، والطبري في «تفسيره» (٣٣٨/١)، وابن حزم في «الإحكام» (٥/ ١٦٥)، والبيهقي في «الكبرى» (٦/ ٢٢٠)، من طرق عن معمر وهشام بن حسان، وأيوب عن ابن سيرين عن عَبيدة بهذا مطولا ومختصرًا.

وذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٤٤٣) وقال: «وهذه السياقات عن عبيدة وأبي العالية والسدي وغيرهم فيها خلاف، والظاهر أنها من كتب بني إسرائيل وهي مما يجوز نقلها ولكن لا تُصدق ولا تكذب؛ فلهذا لا يعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا».

=

ذلك، فلو قدم ذكر القتيل على الأمر بذبح البقرة لصارت قصة واحدة، وقضيةً داخلٌ

=

قلت: وسند هذه الرواية وإن كان موقوفًا عن عَبيدة، إلا أنه **سند صحيح**، وقائله هو عَبيدة بن عمرو – أو ابن قيس – السلماني من كبار التابعين قال فيه الحافظ في «التهذيب» (٨٤/٧): «مخضرم فقيه ثبت»، ورواه عنه محمد ابن سرين وهو تابعي إمام ثقة ثبت، ومن رواته عنه: هشام بن حسان من أوثق الناس وأثبت الناس في الرواية عن ابن سرين، و: معمر بن راشد: إمام، ثقة، نبيل، وقد صحح الحافظ سنده كما في «الفتح» (٤٤٠/٦).

وقد صح هذا أيضًا عن أبي العالية، علقه البخاري في «صحيحه»، ووصله الطبري (٣٣٧/١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ برقم ٧٢٤، ٧٢٩، ٧٣٠)، من طريق أبو جعفر عن الربيع بن أنس عن أبي العالية، وأبو العالية هو: رفيع – مصغر – بن مهران الرِّياحِيُّ – بكسر الراء والتحتانية – مولاهم، ثقة مخضرم متفق على توثيقه، أخرج حديثه الجماعةُ، والرَّبيع بن أنس: هو البكري، ويقال الحنفي بصري ثم خراساني. قال فيه أبو حاتم الرازي: «صدوق، وهو أحبُّ إلي في أبي العالية من أبي خلدة»، وقال النسائي: «ليس به بأس»، وأبو جعفر: هو الرازي عيسى بن ماهان بن إسماعيل: اختلفوا فيه فوثقه بعضهم وضعفه البعض الآخر، ولعل أوسط الأقوال فيه وأعدلها ما قاله ابن عدي: «له أحاديث صالحة وقد روى عنه الناس وأحاديثه مستقيمة وأرجو أنه لا بأس به».اهـ.

قلت: حديثه هنا في التفسير وهو له عناية بالتفسير، لاسيما وهي نُسخةٌ تَعِبَ عليها وتعاهدها؛ لهذا هو ثقة فيه كما قال أبو عمر ابن عبد البر: «هو عندهم ثقة عالم بالتفسير».

قال أبو محمد بن حزم: «وهذه مرسلات وموقوف لو أتت فيما أنزل علينا ما جاز الاحتجاج بها أصلا فكيف فيما أنزل في غيرنا وليس في القرآن نص بشيء مما ذكر في هذه الأخبار أكثر من أنهم تدارؤوا في نفس مقتولة منهم فأمرهم – عَزَّ وَجَلَّ – أن يذبحوا بقرة فيضربوه ببعضها». اهـ من «الإحكام» (٥/ ١٦٥).

قلت: ولا أرى بأسًا في هذه الآثار لصحتها عن عدد من التابعين الثقات لا سيما وقد وافقت أصلاً شرعياً عندنا وهو أن القاتل لا يرث كما صح عن النبي ﷺ، والله تعالى أعلى وأعلم.

بعضها في ضمن بعض، فَفَصَل هذا من هذا ليتبين ذمهم وسوء فعالهم في القضيتين؛ ولهذا أتى في ابتداء كل منهما بـ (إذ) الدالة على تذكر تلك الحال وتصويرها، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ الآيات [البقرة: ٦٧] ثم قال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧٢] وليرتب عليه أيضاً ما ذكر بعده من قوله: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة: ٧٣] إلى آخر الآيات، والله أعلم.

ويُقارب هذا ما ذكر الله في قصة مريم حين أثنى عليها بالنعم الظاهرة والباطنة هي ووالدتها، فذكر حالها وكمالها أوّلاً، وأن الله جعلها في كفالة زكريا لتتربى تربيةً حسنة، وتتأدب وتتعلم، وذكر اجتهادها في ملازمة محرابها، واستجابة دعاء أمها، وأنه تقبلها بقبول حسن، وأنبتها نباتاً حسناً قبل ذكر اختصام بني إسرائيل فيها، واقتراعهم عليها[1]؛ لينبه تعالى أن هذا مقصود، وهذا مقصود، وأن لها مدحاً وكمالاً في حال اختصامهم عليها، ومدحاً وكمالاً في حال نشأتها وعبادتها، وتيسير الله لها أمورها.

ومن فوائد ذلك: أن تقديم الغايات والمقاصد والنهايات أهم من تقديم الوسائل، فالاختصاص من باب الوسائل، وما ذكر قبله من باب المقاصد، والله أعلم وأحكم.

---

(١) يشير المصنف – رَحِمَهُ ٱللَّهُ – إلى قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾، قال قتادة: «كانت مريمُ ابنةَ إمامهم وسيِّدهم، فتشاجر بنو إسرائيل، فاقترعوا فيها بسهامهم أيُّهم يكفُلها، فقرعهم زكريّا، فكفلها زكريا، يقول: ضمّها إليه». أخرجه الطبري (١٦٧/٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦٥٠/٢)، وابن المنذر في «التفسير» (١٩٩/١) **بسند صحيح**، نقله ابن القيم ونقل بعده أثراً **ضعيفًا** عن ابن عباس، ثم قال: «وهذا متفق عليه بين أهل التفسير».

ذِكْرُ الله مرقِّع للخلل متمم لما فيه نقص[١]

ودليله قوله تعالى – بعدما ذكر صلاة الخوف وما فيها من عدم الطمأنينة ونحوها – قال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣] أي: لينجبر نقصكم، وتتم فضائلكم.

ويشبه هذا: أن الكمال هو الاستثناء في قول العبد: إني فاعل ذلك غداً، فيقول: إن شاء الله، فإذا نسي فقد قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] وهذا أعم من كونه يستثني، بل يذكر الله تعالى تكميلاً لما فاته من الكمال، والله أعلم، فعلى هذا المعنى: ينبغي لمن فعل عبادة على وجهٍ فيه قصور، أو أخل بما أُمِرَ به على وجه النسيان؛ أن يتدارك ذلك بذكر الله تعالى ليزول قصوره، ويرتفع خلله[٢].

---

(١) من أصل كلام الشيخ المصنف.

(٢) ولهذا أمرنا الله تعالى بالذكر بعد العبادات، فبعد الصلاة تسبيح وتحميد وتكبير، وبعد شهر الصيام: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وبعد الحج: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وعلى كل الأحوال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب: ٤١].

فكان الأمر بالذكر في القرآن والسنة إكمالاً للنقص الذي هو من الطبيعة البشرية، ولأن الإنسان مهما بلغ في عبادته فهو مُقصر لا محالة، فكان الذكر جبرا لهذا التقصير، والله أعلم.

وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ

احتجاج الفقهاء على أنه لا يجب على الزوج أن يطأ زوجته إلا في كل ثلث سنة مرة[(١)] بقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٢٦] فيه نظر، وإنما فيها الدلالة على أن للمؤلي[(٢)] خاصة هذه المدة لأجل إيلائه، وأما غير المؤلي فمفهومها يدل على خلاف ذلك، وأنه ليس له أربعة أشهر وإنما عليه ذلك بالمعروف[(٣)]؛ لأنه من أعظم المعاشرة الداخلة في قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾

---

(١) هذا هو المذهب عند الحنابلة، قال في الإنصاف: «هذا المذهب، بلا ريب، وعليه جماهير الأصحاب» انظر: الإنصاف للمرداوي (٨/ ٣٥٣)، والفروع لابن مفلح (٨/ ٣٨٨)، والمغني لابن قدامة (١١/ ٥٣).

قلت: وهذا القول – كما قال المصنف – **فيه نظر**؛ لأن تقييده بهذه المدة قد يكون فيه إضرار بالمرأة وعليه فاتباع بالمعروف بين الزوجين هو الأحسن لنفي الضرر عن المرأة، وهو الأليق بمقام حسن العشرة والمعروف بينهما كما سيوضح الشيخ المصنف وكما سيأتي النقل عن ابن القيم **رحمهما الله**.

(٢) **المولي**: هو الذي يحلف بالله – عَزَّوَجَلَّ – أن لا يطأ زوجته أكثر من أربعة أشهر.

(٣) وهذا الذي ذهب إليه الشيخ المصنف – رَحِمَهُ ٱللَّهُ – هو الصحيح وهو مذهب الشافعي وأبو حنيفة، انظر: المغني لابن قدامة (١١/ ٥٣).

وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله، قال ابن القيم في «روضة المحبين» (١/٣١٥): «وقالت طائفة أُخرى: بل يجبُ عليه أن يَطَأها بالمعروف، كما ينفق عليها، ويكسوها، ويُعاشرها بالمعروف، بل هذا عمدةُ المعاشرة ومقصودُها، وقد أمر الله – عَزَّوَجَلَّ – أن يعاشرَها بالمعروف، فالوَطْءُ داخلٌ في هذه المعاشرة ولابدّ. قالوا: وعليه أن يُشبعها وَطْأً إذا أمكنه ذلك، كما عليه أن يُشبعَها قوتًا. وكان **شيخنا** [يعني: شيخ الإسلام – رَحِمَهُ ٱللَّهُ –] **يرجّح هذا القول ويختاره**».اهـ

[النساء: ١٩] فمن آلى زوجُها منها فله أربعة أشهر، لا تملك المطالبة إلا أن يتبين أن قصده الضرار؛ فيمنع من ذلك.

فصل

اختيار الأصحاب من شيم أولي الألباب

يؤخذ من نهي الله عن نكاح المشركة وإنكاح المؤمن للمشركة، وتعليل الله لذلك: أنه ينبغي اختيار الخلطاء والأصحاب الصالحين، الذين يدعون إلى الجنة بأقوالهم وأفعالهم، وتجنب ضدهم من الأشرار، الذين يدعون إلى النار بحالهم ومقالهم، ولو كانوا ذوي جاه وأموال وأبهة، ولو كان الأولون فقراء ولا جاه لهم ولا قدر عند كثير من الناس؛ لأن اختيار السعادة الأبدية أولى بالعاقل من حصول حظ عاجل يُعقب أعظمَ الحسرة وأشد الفوت، فتخيُّر الخلطاء والأصحاب مِن شيم أولي الألباب.

الفرق بين تزكية العبد لنفسه وتزكية الله لعباده

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾[النساء: ٤٩] أي إذا كانوا إنما حملهم على تزكية نفوسهم ومدحها؛ خوف أن لا

يعرف مقدارهم ومنزلتهم فليعلموا أن الله هو المزكي لمن يشاء من خلقه[١]، وهو الذي تزكى بترك القبائح وفعل الخيرات، والله تعالى شكور حكيم، فإن كانوا أزكياء حقيقة فلا بد أن يظهر الله ذلك وإن لم يظهروه؛ فإنه لا يظلم فتيلاً، ولكن قد علم أن الحامل لهم على هذه التزكية: الدعوى الباطلة، والافتراء والكذب؛ فلهذا قال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾ [النساء:٥٠].

اتفاق المقاصد من أسباب حصول المطالب

اتفاق المقاصد والاجتماع من أكبر الأسباب لحصول المطالب المهمة، كما أن اختلاف الإرادات وحصول التنازع من أسباب الفشل وتفويت المصالح؛ ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ - إلى قوله -: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٥، ٤٦].

وإذا كان هذا في قتال الأعداء – الذي هو أشد الأشياء وأصعبها - فغيره من الأمور من باب أولى وأحرى.

---

(١) ونهانا – عَزَّوَجَلَّ – عن تزكية النفس وتزكية الغير في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: ٣٢]، وقد مدح رجل رجلاً عند النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «وَيْلَكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ أَخِيكَ ثَلَاثًا مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا لَا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ: **أَحْسَبُ فُلَانًا وَاللهُ حَسِيبُهُ، وَلَا أُزَكِّي عَلَى اللهِ أَحَدًا، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ**». أخرجه البخاري (٢٦٦٢).

براءة الله ورسوله ﷺ من المشركين في سورة والكافرون

من المناسبات الحسنة أن أكبر البراءة - وهو براءة الله ورسوله من المشركين - أمرَ الله بإعلانها في يوم الحج الأكبر؛ فالذنوب والمعاصي جميعها تشترك في البراءة من الله ورسوله ﷺ وعدم الموالاة، ولكن البراءة التامة التي ليس معها من الموالاة مثقال ذرة إنما هي: مِن كل مشرك وكافر بالله العظيم.

وتمام موالاة المؤمن بالله ورسوله الموافقة التامة على هذه البراءة؛ ولهذا كانت سورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: ١] إلى آخرها، متضمنة لهذه البراءة، مستلزمة للإخلاص لله تعالى في جميع الدين[(١)].

في رحاب سورة التوبة

قوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ٨] وفي الآية الأخرى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ۝١٠﴾ [التوبة:١٠] دليل على معاداتهم للصحابة

---

(١) قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هَذِهِ السُّورَةُ سُورَةُ الْبَرَاءَةِ مِنَ الْعَمَلِ الَّذِي يَعْمَلُهُ الْمُشْرِكُونَ، وَهِيَ آمِرَةٌ بِالْإِخْلَاصِ فِيهِ».اهـ من تفسير القرآن العظيم (٥٢٧/٨).

خصوصاً وعموماً[١].

فخصوصاً: لما بينكم وبينهم من العداوة وآثارها.

وعموماً: لإيمانهم، فلم تكن هذه العداوة لهم إلا لأجل الإيمان؛ فهم أعداء الإيمان وأعداء كل مؤمن، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، وهذا هو الاعتداء التام؛ فلذلك حصر الاعتداء فيهم بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ۝١٠﴾.

الحض على قتال أئمة الكفر لنقضهم العهد وطعنهم في الإسلام

قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ۝١٢﴾ [التوبة: ١٢].

أوقَعَ الظاهرَ – وهو قوله: ﴿أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ – موقع المضمر، فلم يقل: فقاتلوهم؛ ليدل على الحض على قتالهم، وأنهم تمكنوا من الكفر، ودل على أن بهذه الأشياء يكون الإنسان من أئمة الكفر، وهو نقض العهود، والدعوة إلى دين الكفر، والطعن في دين الإسلام.

---

(١) لذا أمرنا الله بمعاداة المشركين ولو كانوا آباءً أو أبناءً أو ذوي أرحام كما في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾.

ويدل هذا على أن أئمة الإيمان ضدهم، فهم المؤمنون الملتزمون لشرائع الإيمان، الموفون بعهوده، الداعون إلى الله، الذابون عنه، المبطلون لما ناقضه ظاهراً وباطناً، وأنهم الموثوق بهم، ومحل القدوة والأمانة – نسأل الله تعالى من فضله –.

تطهير المقدسات

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] دليل على أن قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦] عام لتطهيره من النجاسات الحسية، والنجاسات المعنوية(١).

---

(١) أصح الأقوال في نجاسة الكافر: القول بأن الكافر نجس إلا أن نجاسته معنوية أي أنه نجس نجاسة دين وعقيدة، **وهذا مجمع عليه**؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾.

أما بدنه فالصواب أنه طاهر حال حياته وبعد وفاته، لأن الله تعالى أباح للمسلم نكاح الكافرة الذمية، ولم يأمر بالتطهر من عرقها ونحوه، وكذلك أباح لنا الله – عَزَّوَجَلَّ – أكل طعامهم مع أنهم يلامسونه بأيديهم، وتوضأ النبي ﷺ هو وأصحابه من ماء مشركة، وربط ﷺ مشركاً في المسجد، ولو كان جسده نجساً ما أدخله المسجد، ولم يرد دليل يدل على نجاسة جسد الكافر في حال حياته ولا بعد مماته، مع أن المسلمين في جميع البلدان بحاجة لمعرفة مثل هذا الحكم، وهذا الذي يظهر من كلام الشيخ المصنف هنا.

وحديث ربط النبي ﷺ للمشرك داخل المسجد **حديث متفق عليه**: وهو قطعة من حديث طويل أخرجه البخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤).

واعترضوا عليه: بأنه حديث منسوخ وأنه كان قبل النهي عن دخول المشركين المسجد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾.

وأجيب عن هذا الاعتراض: بأنه لا دليل على النسخ والنسخ آخر ما نذهب إليه معشر أهل

=

آكلو الأموال المحرمة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ [التوبة: ٣٤] ذكر الله فيها جماع الأموال، وأن الآكلين لها صنفان:

أحدهما: من أخذها بغير حقها، وأخذ أموال الناس بالباطل من الغصوب ونحوها، والرشاء ونحوها وتناول من له مستحق يبذل له، ويأخذه بحسب قيام الوصف به وليس به؛ فدخل في ذلك مصارف الصدقات والأوقاف، والزكوات والكفارات

=

الحديث، كما أن النهي عن دخول المسجد الحرام لا يشمل النهي عن دخول غيره من المساجد، وهذا النهي ليس خاصًا في مسجد الكعبة، بل ينهى عن دخول الحرم كله، وأما ما احتجوا من عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ ؛ قالوا: وإذا ورد لفظ نجس في الشرع حمل ذلك على الحقيقة الشرعية، وهي النجاسة العينية.

فأجيب: بأن الحكم هنا معلق على وصف، وهو الشرك، والشرك نجاسة معنوية، والأصل حمل المعنى على الحقيقة الشرعية، هذا مسلم لكن إذا وردت قرينة تمنع من إرادة الحقيقة الشرعية لم يحمل عليها، فلما أذن في نكاح نساء أهل الكتاب، وأباح لنا طعامهم، علم أن الحقيقة الشرعية غير مرداة هنا، فحملنا الآية على النجاسة المعنوية، والله أعلم.

واحتجوا بقوله ﷺ: «**المؤمن لا ينجس**»، قالوا: هذا الحديث منطوقه أن المسلم طاهر ومفهومه أن الكافر نجس، **وأجيب**: لا حاجة إلى الاستدلال بمفهوم الحديث، وعندنا منطوق الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ ، وقد سبقت الإجابة عن هذا، وعليه؛ فإن القول بنجاسة المشرك قول ضعيف، والصواب أن الكافر طاهر حال حياته وحال موته.

والنفقات ونحو ذلك.

والصنف الثاني: مَن منع الحق الذي عليه مِن ديون الله وديون الآدميين، وكلاهما أكل للمال بالباطل.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٥] قال: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ ولم يقل: (يوم تحمى في نار جهنم)؛ ليدل ذلك على أنها مع حرارة نار جهنم تستعمل لها الآلات المحمية - كالمنافيخ ونحوها - فيضاعف حرها، ويشتد عذابها.

وذكر المفسرون - رحمهم الله تعالى - مناسبة لتخصيص كي جباههم وجنوبهم وظهورهم، وذلك لأنه إذا جاءهم الفقير السائل صعّر أحدُهم بوجهه، فإذا أعاد عليه ولاّه جنبَه، فإذا ألح عليه ولاّه ظهره فاختصت هذه الثلاث لذلك جزاء وفاقاً[(١)].

وظهر لي معنى أولى من هذا: وهو أن كيّ هذه المواضع الثلاثة هي أشد على الإنسان من غيرها، وهي متضمنة لجهاته الأربع: الأمام والخلف واليمين والشمال؛ وهذه الوجوه التي يخرج منها الإنسان، فلما منعوا الواجب عليهم منعاً تاماً من جميع جهاتهم؛ جوزوا بنقيض مقصودهم؛ فإن مقصودهم من المنع [التمتع][(٢)] بتلك الأموال، وحصول النعيم بها، وخوف وحرارة فقدها لو بذلوها؛ فصار المنع هو عين العذاب، فلو

---

(١) انظر: أنوار التنزيل (٢/ ٥١)، وإرشاد العقل السليم (٣/ ١٤٤)، وروح المعاني (٥/ ٢٨٠).

(٢) وقع في بعض المطبوع: [التمتع]، والصواب ما أثبتناه.

أنهم أخرجوها وقت الإمكان لسلموا من كيها، وفازوا بأجرها[(١)]، ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

---

(١) وقد وقع هذا المعنى الذي ظهر للمصنف – رَحِمَهُ ٱللَّهُ – في كلام بعض المفسرين؛ فقال ابن عاشور في «التحرير والتنوير» (١٠/ ١٧٩): «وَالْمَعْنَى: تَعْمِيمُ جِهَاتِ الْأَجْسَادِ بِالْكَيِّ فَإِنَّ تِلْكَ الْجِهَاتِ مُتَفَاوِتَةٌ وَمُخْتَلِفَةٌ فِي الْإِحْسَاسِ بِأَلَمِ الْكَيِّ، فَيَحْصُلُ مَعَ تَعْمِيمِ الْكَيِّ إِذَاقَةٌ لِأَصْنَافٍ مِنَ الْآلَامِ».

وقال الشوكاني في «فتح القدير» (٢/ ٤٥٦): «وَخَصَّ الْجِبَاهَ وَالْجُنُوبَ وَالظُّهُورَ، لِكَوْنِ التَّأَلُّمِ بِكَيِّهَا أَشَدَّ، لِمَا فِي دَاخِلِهَا مِنَ الْأَعْضَاءِ الشَّرِيفَةِ».

وذكر بعض المفسرين أوجهًا أخرى في هذه المناسبة:

- منها: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا﴾ أي بهذه الأموال ﴿جِبَاهُهُمْ﴾ التي هي أشرف أعضائهم لأنها مجمع الوجوه والرؤوس وموضع الجاه الذي يجمع المال لأجله لتعبيسهم بها في وجوه الفقراء ﴿وَجُنُوبُهُمْ﴾ التي يحوونه لملئها بالمآكل المشتهاة والمشارب المستلذة ولازورارهم بها عن الفقراء ﴿وَظُهُورُهُمْ﴾ التي يحوونه لتقويتها وتحميلها بالملابس وتجليتها ولتوليتهم إياها إذا اجتمعوا مع الفقراء في مكان.
- ومنها: أن كمال حال بدن الإنسان في جماله وقوته أما الجمال فمحله الوجه، وأعز الأعضاء في الوجه الجبهة، فإذا وقع الكي في الجبهة، فقد زال الجمال بالكلية، وأما القوة فمحلها الظهر والجنبان، فإذا حصل الكي عليها فقد زالت القوة عن البدن، فالحاصل: أن حصول الكي في هذه الأعضاء الثلاثة يوجب زوال الجمال وزوال القوة، والإنسان إنما طلب المال لحصول الجمال ولحصول القوة. انظر هذه الأقوال وأكثر: أنوار التنزيل (٢/ ٥١)، وإرشاد العقل السليم (٣/ ١٤٤)، ونظم الدرر (٣/ ٣٠٦)، وروح المعاني (٥/ ٢٨٠)، والبحر المحيط (٥/ ٣٩)، التفسير الكبير (١٦/ ٤٠).

وهذه المناسبات لا تنافي بينها، بل يزيد بعضها بعضًا وضوحًا وتقريبًا للمعنى المراد، فالمعنى هو الترهيب من ترك زكاة الأموال.

ويدل عليه أيضاً قول النبي ﷺ: «**إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا مِن بين يديه ومِن خلفه، وعن يمينه وعن شماله**»(١). وفي اللفظ الآخر: «**هم الأخسرون ورب الكعبة**»(٢).

فمن خسارتهم أنهم فاتهم ربح أموالهم وسلامتهم من تبعتها وكيها، ويؤيد هذا: أن المعنى الذي ذكره المفسرون ليس في اللفظ ما يدل عليه، وليس أيضاً لازماً لكل مانع؛ فقد يمنع الفقير والسائل وهو بغير تلك الصفة، وقد يكون عنده حق واجب لا يطلب، ويسأل أن يعطاه، فيستحق هذا الجزاء، والله أعلم.

معرفة الشهور من إلهام الله لعباده

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٦] دليل على **أن هذه الشهور المعروفة قد ألهم الله العباد لها وفطرهم عليها**، وأن ذلك موافق لقدره وشرعه، ويستدل بها من قال: إن اللغة إلهام من الله، لا اصطلاحٌ اصطلح عليه العقلاء(٣)، والله أعلم.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٣٨٨)، ومسلم (٩٤) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٦٦٣٨)، ومسلم (٩٩٠) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) اختلف في مبدأ اللغات:

- **فذهب قوم** إلى أنها توقيفية لأن الاصطلاح لا يتم إلا بخطاب ومناداة ودعوة إلى الوضع ولا يكون ذلك إلا عن لفظ معلوم قبل الاجتماع للاصطلاح؛ وهو قول أبي الحسن الأشعري، وأبي

=

فريضة جهاد المشركين وشروط النصر

قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [التوبة: ٣٦] في هذه الآية الكريمة فوائد:

إحداها: وجوب قتال المشركين؛ لأن الأمرَ الأصلُ فيه الوجوب.

الثانية: أن ذلك فرض على جميع المؤمنين، وهذا مأخوذ من قوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾ لا من قوله: ﴿كَآفَّةً﴾ فإن ﴿كَآفَّةً﴾ حال من (المشركين) على الصحيح، فخطاب الله للمؤمنين جميعاً بقوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾ يدل على ذلك، ولكن هذا الفرض على الكفاية على القادر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢] وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ الآية [النور:٦١].

=

يعلى الحنبلي، وابن فورك، وابن الحاجب، والظاهرية.

- **وقال آخرون**: هي اصطلاحية إذ لا يفهم التوقيف ما لم يكن لفظ صاحب التوقيف معروفا للمخاطب باصطلاح سابق، وهو قول هاشم المعتزلي.
- **وقال آخرون**: يجوز أن تكون توقيفية ويجوز أن تكون اصطلاحية ويجوز أن يكون بعضها توقيفية وبعضها اصطلاحية وأن يكون بعضها ثبت قياسا فإن جميع ذلك متصور في العقل، وهو قول الباقلاني، وأبو بكر عبد العزيز من الحنابلة.
- **وقال آخرون بالتوقف في ذلك**، وهو قول الرازي، وابن برهان، والجويني.

انظر: روضة الناظر (٢/ ٥٤٣)، وقواطع الأدلة (١/ ٢٨١)، ومجموع فتاوى ابن تيمية (٧/ ٩١) و(١٢/ ٤٤٦ – ٤٥٣)، والخصائص لابن جني (١/ ٤٠)، والمزهر للسيوطي (١/ ٢٠).

الثالثة: أن هذا القتال لجميع المشركين، لا يختص به أحد دون أحد.

الرابعة: أن المستكبرين عن عبادة الله - من أنواع الملاحدة والدهرية – أولى بالقتال من المشركين.

الخامسة: أن قتالهم مستَحَق بشرطين: كونهم مشركين، وكونهم مقاتلين، فمتى زال أحدُ الوصفين لم يقاتَلوا، فالمسلم لا يقاتَل لوصفه الذي اتصف به من الظلم والمعاصي، وإنما يقاتَل المفسد منهم – كالبغاة والخوارج ونحوهم – وكذلك من لم يقاتِل المسلمينَ مِن المشركين لا يقاتَلون؛ إما لكونه ليس أهلاً للقتال – كالنساء والأطفال والشيوخ والرهبان ونحوهم – وإما لكونه أخلد للمسلم، وأقرّ بالجزية، ففيه دليل أيضاً على أن الجزية تقبل من كل مشرك بذلها، ولو لم يكن من أهل الكتاب؛ لهذا العموم.

السادسة، والسابعة: فيه التنبيه على الإخلاص في الجهاد، وأنهم يقاتَلون لوجه الله، ولكونهم اتصفوا بما يبغضه الله - وهو الشرك – فليكن الحامل لكم أيها المؤمنون على قتالهم: موافقة ربكم في بغضه وعداوته لهم؛ لأجل أن تكون كلمة الله هي العليا.

الثامنة: التهييج للمؤمنين على قتال المشركين، وذلك أنهم يقاتلون المؤمنين كافة؛ فكل من اتصف بالإيمان فطبعهم الخبيث معاداتُه وقتالُه لأجل إيمانه، أفلا تقاتلون – أيها المؤمنون – مَن كفروا بما جاءكم من الحق، وعاندوه وحاربوه؟! فلتكونوا في عداوتهم متفقين، وعلى حربهم جاهدين.

التاسعة: الاجتهاد على التحقق بتقوى الله؛ لتُنال بذلك معونة الله ومعيته.

العاشرة: أن معية الله نوعان:

١- **عامة**: يدخل فيها البر والفاجر، كقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧] وما أشبهها من الآيات الدالة على كمال العلم والمجازاة.

٢- **وخاصة**: لمن قام بمحبوبات الله: من الإيمان والإحسان والصبر والتقوى، كقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾، و﴿مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٣﴾، و﴿مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذه المعية تقتضي – مع العلم والجزاء الحسن – العون والنصرة والتأييد والقرب الخاص.

الحادية عشرة: بلغ فيها التنبيه على أسباب الانتصار على الأعداء، وهو الاتفاق على قتالهم، وعدم المنازعة، والإخلاص لله تعالى، وشدة العداوة التي مِن لازمها أن يُبْذل ما يستطاع ويُمكن في قتالهم، ويدخل في ذلك: إعدادُ السلاح والخيل، والقوةُ بجميع أنواعها، وكذلك حصول اليقين بمعية الله والإتصاف بالتقوى، فمتى اجتمعت هذه الأسباب لم يتخلف عنها النصر؛ وبحسب ما يفوت منها يفوت من النصر، وبهذا ونحوه يُعلم أن الشريعة الإسلامية كاملة من جميع أبوابها، منتظمة لمصالح الدنيا والآخرة[١]. وبالله التوفيق.

---

(١) بهذه الشمولية التي امتاز بها التشريع الإسلامي المنَّزل على خاتم النبيين نال العالمية التي أرادها الله لهذا الدين، ولو أن بلاد العالم طبقوا تعاليم هذا الدين لصلح العالم كله، ولم لا وهو الدين الذي يوافق الفطرة الإنسانية، ولو بُهر الناس بتطبيق الغرب لبعض القيم لكان حقاً عليهم أن

=

تحريم الحيل

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾ [التوبة: ٣٧].

فيها دلالة على تحريم **الحِيَل** المتضمنة تغييرَ دين الله؛ بإسقاط الواجبات وإحلال المحرمات بالتوصل إلى ذلك بصورة المباح، ووجه هذا: أن الله تعالى ذم أهل النسيء، وجعل هذا من زيادة كفرهم، وهم يُقدّمون شهراً أو يؤخرونه، ويبدلون الشهر الحرام بالشهر الحلال وبالعكس، ويجعلونه العدد الذي يصطلحون عليه، ويسمونها بالأشهر الحرم! ويتجنبون فيها ما يتجنبون في الأشهر الحرم، فهم غيّروا صُوَرها وأسماءها، وعلّقوا التحريم والتحليل على الصورة والاسم، لا على الحقيقة والمعنى! وهذه الحيل بعينها من غير فرق، والله أعلم.

الدعوة إلى الله من العباد
أما الهداية فمن رب العباد

يقول تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ

=

يبهروا بهذا الدين، فهو دين القيم والمثل العليا، وأرى أن ما من أمة نهضت إلا ونهضت على ركيزة من ركائز هذا الدين فياليت المسلمين يعلمون عن هذا الدين فيعتزوا به ويطبقوه لينهضوا ويسودوا كما ساد الرعيل الأول من صحابة النبي ﷺ.

عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ [هود: ١٢].

الداعي إلى الله وإلى دينه له طريق ووسيلة إلى مقصوده، وله مقصودان:

فطريقة الدعوة بالحق إلى الحق للحق فإذا اجتمعت هذه الثلاثة، بأن كان يدعو بالحق أي بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وكان يدعو إلى الحق - وهو سبيل الله تعالى وصراطه الموصل لسالكه إلى كرامته - وكان دعوته للحق، أي: مخلصاً لله تعالى، قاصداً بذلك وجهَ الله؛ حصل له أحد المقصودين لا محالة، وهو: ثواب الداعين إلى الله، وأجر ورثة الرسل بحسب ما قام به من ذلك، وأما المقصود الآخر، وهو: حصول هداية الخلق وسلوكهم لسبيل الله الذي دعاهم إليه؛ فهذا قد يحصل وقد لا يحصل، فليجتهد الداعي في تكميل الدعوة كما تقدم، وليستبشر بحصول الأجر والثواب.

وإذا لم يحصل المقصود الثاني - وهو هداية الخلق - أو حصل منهم معارضة أو أذية له بالقول أو بالفعل؛ فليصبر ويحتسب، ولا يوجب له ذلك ترك ما ينفعه، وهو القيام بالدعوة على وجه الكمال، ولا يضق صدره بذلك؛ فتضعف نفسه، وتحضره الحسرات، بل يقوم بجدٍ واجتهاد، ولو حصل ما حصل من معارضة العباد.

وهذا المعنى تضمنّه إرشادُ الله بقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ [هود: ١٢].

فأمره بالقيام به بجدٍ واجتهاد، مكملاً لذلك غير تارك لشيء منه، ولا حرج صدره لأذيتهم، وهذه وظيفته التي يُطالَب بها؛ فعليه أن يقوم بها، وأما هداية العباد

ومجازاتهم فذلك إلى الله الذي هو على كل شيء وكيل.

معرفة الله في السراء والضراء من أكمل الإيمان ومن شعب الشرك أن لا يعرف إلا عند الضرورة

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الروم: ٣٣] ونحوها من الآيات التي فيها هذا المعنى؛ فإذا كان هذا ثابتاً في أصل الدين، أن الناس أكثرهم إذا مسهم الضر أنابوا إلى الله؛ لعلمهم أنه كاشف الكربات وحده لا شريك له، وللضرورة التي تضطرهم إليه، ثم إذا زالت الضرورة عادوا إلى شركهم؛ فكذلك الأمر ثابت في فروع الدين، وفي سائر الأمور تجِدِ الناسَ مستجيبين لداعي الغفلة، مقيمين على ما يكرهه الله، غافلين عن ذكر ربهم ودعائهم، فإذا مستهم نائبةٌ من نوائب المحن أقبلوا إلى ربهم متضرعين، ولكشف ما بهم داعين، فأقبلوا وأنابوا، ثم إذا أزال الله شدتهم، وكشف كربتهم؛ عادوا إلى غفلتهم وغيهم يعمهون، ونسوا ما كانوا يدعونه إليه من قبل، كأنه ما كان.

وهذه الحال من أعظم الانحرافات، وأشد البليات التي يبتلى بها العبد، لا يعرف ربه إلا في الضرورة، وهذه شعبة من شعب الشرك، ومن كان فيه هذا الأمر ففيه شَبَه ظاهر مِن حال المشركين.

وإنما المؤمن الكامل الذي يعرف ربَّه في السراء والضراء، والعسر واليسر، فهذا هو العبد على الحقيقة، وهذا الذي له العاقبة الحسنة والسعادة الدائمة، وهذا الذي يحصل له النجاة من الكروب إذا وقع فيها.

قال تعالى بعدما ذكر عن ذي النون أنه بسبب عبادته في الرخاء عَرفَه اللهُ في الشدة: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]، وقال: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٨]، وقال النبي ﷺ: «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»[(١)]، وقريب من هذا المعنى ما ذكر اللهُ من حال المترفين الرادين لدعوة المرسلين، حيث قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبإ: ٣٤] فأخبر أن السبب في ردهم لدعوتهم

---

(١) **ضعيف**: أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧) من حديث ابن عباس، فيه ابن لهيعة وهو: عبدُ اللهِ بنُ لَهِيعةَ الحَضْرَميُّ المِصْريُّ، مِن الطبَقةِ السابعةِ، وقد اختلَفَ أهلُ العلمِ فيه:

- فمنهم من قال: خبره صحيح على الإطلاق.
- ومنهم من يقول: في حديثه تفصيل.

وهؤلاء عندهم قولين:

الأول: قولُ مَن يصحِّحُ روايةَ العَبَادِلةِ عنه، أو يحسِّنُها، ويرُدُّ روايةَ غيرِ العبادِلةِ عنه؛ وهو قولُ بعضِ المتأخِّرين؛ وهو قولٌ باطلٌ ليس بشيءٍ.

الثاني: يقولون: حديث من روى عنه بعد الاختلاط واحتراق كتبه ضعيف، ولكن نقوي روايةَ مَن روى عنه قبل احتراق كتبه.

وبعض العلماء أنكروا قصة اختلاطه واحتراق كتبه وضعفوه مطلقا ومنهم من لم ينكر تغيره لكنه قال: حاله قبل احتراق كتبه وبعده سواء – يعني ضعيف في الحالتين – وهذا هو القول الثالث وهو الصحيح إن شاء الله.

ولذلك قال ابنُ مَعِينٍ: «ابنُ لَهِيعةَ ليس بشيءٍ؛ تغيَّر أو لم يتغيَّرْ»، وضعَّفه ابنُ حِبَّانَ مطلَقًا، وأبو زُرْعةَ، وغيرُهم مِن كبارِ أهلِ العلمِ.

وقد رُوي الحديث من طرق أخرى كلها ضعيفة أشار إليها العلامة الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٥١٠٧)، فليرجع إليه.

كونهم مترفين، فدل على أن الترف هو الانغماس في نعيم الدنيا ولذاتها، والانكباب عليها، والتنوُّق[١] في مآكلها ومشاربها ومراكبها، والإسراف في ذلك يحدث في الإنسان خُلقاً خبيثاً يمنعه من سرعة الانقياد لأمر الله، والاستجابة لداعي الله، وكما أنه ثابت واقع في أصل الدين فإنه واقع أيضاً في شرائعه وفروعه؛ فكم منع الترفُ من عبادات! وكم فوّت مِن قربات، وكم كان سبباً للوقوع في المحرمات؛ فإن الترف وكثرة الإرفاه[٢] تُصيّر الإنسان شبيهاً بالأنعام التي ليس لها همٌّ إلا التمتع في الأكل والشرب![٣].

وكذلك يُرَهِّل[٤] البدنَ ويُكسِله ويُثقِله عن الطاعات، ويُشغل القلبَ في مرادات النفس، ومراداتُها كم حملت صاحبها على جمع الأموال من غير حلها! وحملت النفس على الأشر والبطر، والرياء، والفخر والخيلاء، والاستكثار من قرناء السوء!

وفي الجملة: في الترف والسرف مِن المضار أضعافَ أضعافَ ما ذكرنا، فعلى العبد أن يكون مقتصداً في مأكله ومشربه، وملبسه ومسكنه، وغير ذلك من حوائجه التي لا بد منها، فلا يعلق قلبه إلا بما يحتاجه منها، ولا يستعمل زيادة عن حاجته، ويُعوّد

---

(١) تنَوَّقَ في أموره: تجود وبالغ فيها.

(٢) الإرْفَاه: التنعُّم والدَّعَة ومُظاهرَةُ الطَّعام على الطَّعام، واللباس على اللِّباس. انظر: تهذيب اللغة: (٦/ ١٥٠).

(٣) يشير الشيخ المصنف – رَحِمَهُ ٱللَّهُ – ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾.

(٤) رَهِلَ لَحْمُهُ بالكسر: اضْطَرَبَ واسْتَرْخَى وانْتَفَخَ أو وَرِمَ من غيرِ داءٍ.

نفسه على ذلك؛ لتتمرن النفسُ على الأخلاق الجميلة ويسلم مِن كثير مِن الآفات والشرور المترتبة على الترف؛ ولهذا لما فُتحت الدنيا على المسلمين أيام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكثرت الأموال كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينهى المسلمين أشد النهي عن الترف، ويأمرهم بالخشونة والاقتصاد الذي به صلاح المعاش والمعاد(١)، وبالله التوفيق.

القلب كالأرض فمتى نزل غيث السماء على الأرض ربت وأنبتت ومتى نزل غيث الوحي والعلم على القلب أنبت المعارف الواسعة والمحبة الله ورسوله ﷺ والخير الكثير وغير ذلك من العلوم والأعمال

قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ

---

(١) وقد جاء في ذلك من الآثار الصحيحة ما يبهر الألباب ويذهل العقول، فقد أخرج ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٩٣ – ١٠٠) آثاراً من كلام عمر في ذم الترف، فعن عبد الأعلى عن معمر عن الزهري عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: «لما أتى عمر بكنوز آل كسرى فإذا من الصفراء والبيضاء ما يكاد أن يحار منه البصر قال: فبكى عمر عند ذلك، فقال عبد الرحمن: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ إن هذا اليوم يوم شكر وسرور وفرح، فقال عمر: «**ما كثر هذا عند قوم إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء**».

هذا الأثر يبين لنا كيف كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حريصاً أن لا يغتر أحد من رعيته بزخارف الدنيا وينفرهم منها حتى يبعد عنهم العداوة والبغضاء فيصلح بذلك معاشهم ومعادهم.

ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم: ٥٠] فإذا كانت الأرض الخاشعة الخالية من كل نبت، إذا أنزل الله عليها المطر اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، واختلط نبتها، وكثرت أصنافه ومنافعه؛ جعله الله تعالى من أعظم الأدلة الدالة على سعة رحمته وكمال قدرته، وأنه سيحيي الموتى للجزاء، فالدليل في القلب الخلي من العلم والخير حين ينزل الله عليه غيث الوحي فيهتز بالنبات، وينبت من كل زوج بهيج من العلوم المختلفة النافعة، والمعارف الواسعة، والخير الكثير، والبر الواسع، والإحسان الغزير، والمحبة لله ورسوله، وإخلاص الأعمال الظاهرة والباطنة لله وحده لا شريك له، والخوف والرجاء، والتضرع والخشوع لله، وأنواع العبادات وأصناف التقربات، والنصح لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، وغير ذلك من العلوم والأعمال الظاهرة والباطنة، والفتوحات الربانية، مما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر: أعظم مِن الأرض بكثير، على سعة رحمة الله وواسع جوده، وتنوع هباته وكمال اقتداره وعزته، وأنه يحيي الموتى للجزاء، وأن عنده في الدار الأخرى من الخيرات والفضل ما لا يعلمه أحد غيره.

وقد نبّه الله على أن حياة القلوب بالوحي بمنزلة حياة الأرض بالغيث، وأن القلوب الخالية من الخير بمنزلة الأرض الخبيثة، فقال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف: ٥٨].

ترويض النفس على الأعمال الفاضلة يهوّن الصعاب ويجعل المحنة منحة

نية العبد تقوم مقام عمله: وإذا أحسن العبد في عبادة ربه، ووطن نفسه على الأعمال الفاضلة الشاقة؛ سهل الله له الأمور، وهوّن عليه صعابها، وربما انقلبت المخاوف أمناً، وتبدلت المحنة منحة، وربما حصل من آثار ذلك خيرُ الدنيا والآخرة؛ ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ - إلى قوله - ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٢ - ١٧٤] فلا يُستنكر هذا الخير على ذي الفضل العظيم، وفي هذه الآية دليل أيضاً على أن الله يُحدث لعبده أسباب المخاوف والشدائد ليُحدث العبدُ التوكلَ على ربه، والإخلاص والتضرع؛ فيزداد إيمانُه، وينمو يقينُه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

منزلة الخوف عند الصالحين

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١].

ليس فيه نقص كما توهمه بعضهم! وجعل الخوف بمعنى العلم! وإنما فيه زيادة معنىً نفيس، وهو أنه: كما كان العلم نوعين، علمٌ لا يثمر العملَ بمقتضاه، وإنما هو حجة على صاحبه، وهو غير نافع، وعلم يثمر العمل؛ وهو علم المؤمنين بأن الله

سيبعثهم ويجازيهم بأعمالهم؛ فأحدث لهم هذا العلمُ الخوفَ فخافوا مقام ربهم، وانتفعوا بنذارة الرسل، وعلموا أنه ليس لهم من دون الله وليٌّ ولا شفيع، فهؤلاء الذين أمر الله رسولَه بنذارتهم لأنهم يعرفون قدرها، ويقومون بحقها، وأما حالة المعرضين الغافلين، والمعرضين المعاندين؛ فهؤلاء لا ينفع فيهم وعظٌ ولا تذكيرٌ؛ لعدم المقتضى والسبب الموجب، وهذا المعنى يأتي بما أشبه هذا الموضع من القرآن، والله ولي الإحسان.

فصل

قوة العزيمة في الإستمرار على أمر الله

وصف لمن بلغ الدرجات العالية

العزم الذي مدح الله به خيار خلقه، كقوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] هو: قوة الإرادة وحزمها على الاستمرار على أمر الله، والهمة التي لا تَني ولا تفتر في طلب رضوان الله وحسنِ معاملته، وتوطين النفس على عدم التقصير في شيء من حقوق الله، ولذلك لام الله آدم عليه السلام بعدم استمراره على الأمر، وحصول الاغترار منه لعدوه بأكل الشجرة التي عهد الله له بالامتناع من أكلها، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥﴾ [طه: ١١٥] فحصول الفتور وفلتات التقصير منافٍ لكمال العزم، ولهذا لم يكن كمال هذا الوصف إلا لمن بلغوا الدرجة العالية في الفضائل.

والنقص إنما يصيب العبد من أحد أمرين:

١- إما من عدم عزمه على الرشد، الذي هو الخير.

٢- وإما من عدم ثباته واستمراره على عزمه؛ ولهذا كان دعاء النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد**»[(١)] من أنفع الأدعية وأجمعها للخيرات،

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧١٣٥)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٦٦)، من طريق جعفر بن محمد الفريابي وسليمان ابن أيوب بن حزلم الدمشقي قال: حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، حدثنا إسماعيل بن عياش حدثني محمد بن يزيد الرحبي الدمشقي، عن أبي الأشعث الصنعاني شراحيل بن أداة عن شداد بن أوس به.

قلت: وهذا **سند حسن** لولا أن فيه محمد بن يزيد الرحبي؛ أورده ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٨/ ١٢٧)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٢٦١)، ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً، بينما ذكره ابن حبان في «ثقاته» (٩/ ٣٥)، وخطأه في هذا معروف.

وأخرجه أحمد (٤/ ١٢٣) من طريق روح، وابن أبي شيبة (٦/٤٦) من طريق عيسى بن يونس كلاهما عن الأوزاعي عن حسان بن عطية عن شداد بن أوس.

قلت: وفي هذا السند انقطاع، حسان بن عطية **ثقة**، وثقه أحمد وابن معين، إلا أنه لم يدرك شداد بن أوس، ولا أحد من الصحابة وإنما كان كثير الإرسال.

وأخرجه أحمد (٤/ ١٢٥)، والترمذي (٣٤٠٧)، والطبراني في «الكبير» (٧١٧٥، ٧١٧٦، ٧١٧٧)، من طرق عن سعيد الجريري عن أبي العلاء يزيد بن عبد الله بن الشخير عن رجل من بني حنظلة عن شداد بن أوس.

قلت: الحنظلي هذا لا يُعرف، وأخرجه الطبراني (٧١٧٨) وفي سنده عن رجل من بني مجاشع، وهو مجهول كذلك.

وأخرجه النسائي (٣/ ٥٤)، وابن حبان (١٩٧٤)، والطبراني في «الكبير» (٧١٨٠) من طرق عن حماد بن سلمة عن سعيد الجريري عن أبي العلاء عن شداد به.

وهذا الإسناد **رجاله ثقات** وسعيد بن إياس الجريري روى عن حماد قبل الاختلاط، إلا أن فيه علة خفية وهي الانقطاع؛ حيث سقط رجل من بني حنظلة بين أبي العلاء وشداد كما هو

=

فمن أعانه الله على نية الرشد والعزيمة عليها والثبات والاستمرار؛ فقد حصل له أكبر أسباب السعادة.

والناس في هذا المقام درجات بحسب قيامهم بهذين الأمرين، وحسْب ذي الفضل فضلاً أن تكون العزيمة على الرشد وصفه، وآثارها من العلم والعمل نعته، وإذا حصل له نوع فتور وخلل في هذا المأمور رجع إلى أصله وآخِيَّتِه[1]، وداوى هذا الداء بالتذكر والاستغفار، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١] أي تذكروا الخلل الذي دخل عليهم من الشيطان والنقص الذي حصل لهم به الخسران فأبصروا ذلك فبادروا إلى سده والعود إلى ما عودهم وليهم من لزوم الصراط المستقيم، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم بمنه

=

عند الطبراني وغيره كما تقدم تخريجه.

وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٩٣٥)، والطبراني (٧١٥٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٦٦/١) من طريق هشام بن عمار عن سويد بن عبد العزيز عن الأوزاعي عن حسان بن عطية عن مسلم بن مشكم عن شداد.

قلت: وسويد بن عبد العزيز ضعيف.

وأخرجه الحاكم (١/ ٥٠٨) والبيهقي في «الدعوات الكبير» (٢١٢) من طريق محمد بن سنان القزاز عن عمر بن يونس بن القاسم اليمامي، عن عكرمة بن عمار عن شداد بن عبد الله القرشي عن شداد بن أوس.

قلت: وآفته محمد بن سنان: ضعيف بل رماه أبو داود بالكذب، وقال ابن خراش: ليس بثقة.

(١) **الآخِيَّةُ**: عُود يُعرّض في الحائط تُشد إليه الدابة، وقيل: هو حَبل يُدفن في الأرض ويبرز طَرفُه فيُشدّ به.

وكرمه، آمين.

فضيلة التأدب بالآداب الشرعية

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾ [المجادلة: ١١] فيها فضيلة التأدب بالآداب الشرعية، وأنها رفعة عند الله، ولو ظنها الإنسان منقصة، فليس النقص غير الإخلال بآداب الله لعباده.

ومن الفوائد:

إيقاع الظاهر موقع المضمر في هذه الآية حيث قال: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ ولم يقل: «يرفعكم»؛ ليدل ذلك على فضيلة الإيمان والعلم عموماً، وأن بهما تحصل الرفعة في الدنيا والآخرة، ويدل على أن من ثمرات العلم والإيمان سرعة الانقياد لأمر الله، وأن هذه الآداب ونحوها إنما تنفع صاحبها، ويحصل له بها الثواب إذا كانت صادرة عن العلم والإيمان، وهو أن تكون خالصة لوجه الله لا لغير ذلك من المقاصد.

الظاهر أن قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] تفسير لقوله في الآية الأخرى: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡۚ﴾ [المائدة: ٦٦] فالسماء منها مادة الأرزاق، والأرض محلها وموضعها.

فصل

فعل الذنب إثم والإصرار عليه إثم أعظم

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨] ذم لهم من وجهين:

- من جهة فعل الذنب.
- والإصرار على الذنب.
- وثم وجه ثالث مِن الذم وهو: أن الله ذمهم على المكر؛ لأن التبييت هو التدبير ليلاً على وجه الخديعة للحق وأهله: من كلامهم وقولهم بما يبغضه الله ولا يرضاه من الأقوال المحرمة، ومن الإصرار على ذلك؛ فقولهم إثم وظلم، وبياتهم على ذلك وإصرارهم عليه إثم آخر، وهذا أبلغ من أن لو قال: (وهو معهم إذ يقولون ما لا يرضى من القول).

فعلى العبد التوبة إلى الله من فعل الذنوب والإصرار عليها، فكما أن فعلها معصية[١]؛ فالاستمرار عليها ونية فعلها متى سنحت له الفرصة معصيةٌ أخرى.

وعلى العبد أن يُبيّت ما يرضي اللهَ تعالى من الأقوال والأفعال، فيفعل ما يقدر عليه من الخير وينوي فعل الخير الذي لم يحضر وقته[٢]، والذي لا يقدر عليه، وبذلك

---

(١) وليس المقصود من التوبة هو استغفار اللسان كما يظن بعض العوام، بل يجب عقد النية في القلب على عدم العودة إلى الذنب ويصدق ذلك استغفار اللسان، فلابد من ندم القلب أولاً.

(٢) كأن ينوى الصلاة إذا حضر وقتها وينوي الحج إذا دخلت شهوره، أو إن توافرت مؤنه، ولهذا فإن =

يتحقق العبد أن يكون ممن اتبع رضوان الله، فيدخل في هذه المعاملة المذكورة في قوله: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[آل عمران: ١٦٢]، وتحصل له الهداية في أموره كلها، ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٦].

التوكل على الله وأخذٌ بالأسباب معًا من أفضل عبوديات القلب

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء:١٣٠] في هذه الآية **فائدة عظيمة**:

وهي أن العبد عليه أن يعتمد على الله، ويرجو فضله وإحسانه، ويعمل ما أبيح له من الأسباب(١)؛ وأنه إذا انغلق عليه باب وسبب من الأسباب التي قدرها الله لِرِزقه؛

=

مِن أفضل الأعمال انتظار الصلاة بعد الصلاة، وعقد نيته على فعل الطاعة وإن لم يقدر عليه له على ذلك أجر؛ لقوله ﷺ في شأن من حبسهم العذر عن الغزو: «**إن قوماً بالمدينة خلفنا ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا حبسهم العذر**». أخرجه البخاري (٢٨٣٩) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) جاء في هذا حديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطاناً**». أخرجه الترمذي (٢٣٤٤)، وأحمد (٤٣٨/١)، وابن ماجه (٤١٦٤)، وقوله: «خماصا»: أي جياعا جمع خميص، و«بطانا» أي ممتلئة الأجواف جمع بطين.

وفي قول المصنف – رَحِمَهُ اللَّهُ –: «ويعمل ما أبيح له من الأسباب» إشارة إلى وجوب الأخذ

=

فلا يتشوش لذلك، ولا ييأس من فضل الله، ويعلم أن جميع الأسباب مستندة إلى مسببها، فيرجو الذي أغلق عليه هذا الباب أن يفتح له باباً من أبواب الرزق أوسع وأحسن من الباب الأول.

وهذه العبودية من أفضل عبوديات القلب، وبها يحصل التوكل والكفاية والراحة والطمأنينة، فهذه المرأة المتصلة بزوج ينفق عليها ويقوم بمؤنتها، فإذا حصل لها فرقة منه، وتوهمت انقطاع النفقة والكفاية؛ فلتلجأ إلى فضل الله ووعده بأنه سيغنيها وقال: ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ ولم يقل: (يغنها) مع أن السياق يدل عليه؛ لئلا يتوهم اختصاصها بهذا الوعد، وإنما الوعد لها وله، فالله أوسع وأكثر، ولكن هباته وعطاياه تبع لحكمته، ومن الحكمة أن من انقطع رجاؤه من المخلوقين، ومن كل سبب، واتصل أمله بربه، ووثق بوعده، ورجا بِرَّه؛ فإن الله يغنيه ويقنيه، والله الموفق لمن صلح باطنه، وحسنت نيته فيما عند ربه.

=

بالأسباب، وفي الحديث الذي ذكرناه دليل على ذلك، فالطير في غدوها آخذة بالأسباب، فكيف بابن آدم وقد تكاسل عن طلب الرزق بدعوى التوكل على الله كما يفعله اليوم بعض مشايخ الصوفية الذي يعيشون على النذور والتبرعات – هداهم الله، وإنا لله وإنا إليه راجعون – فعلى المسلم الأخذ بالأسباب في توكله على الله كما كان يفعل نبينا ﷺ.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ظاهر رسول الله ﷺ يوم أحد واستأجر دليلاً مشركاً على دين قومه يدله على الهجرة، وكان يدخر لأهله قوت سنة، وهو سيد المتوكلين ﷺ».اهمن «مدارج السالكين» (٢/ ١٣٤ – ١٣٥)، بتصرف يسير.

فصل

تسلية النفس عما عجزت عنه بتذكيرها نعمة الله عليها

ينبغي لمن طمحت نفسه لما لا قدرة له عليه، أو غير ممكن في حقه، وحزنَتْ لعدم حصوله، أن يسليها بما أنعم الله به عليه، مما حصل له من الخير الإلهي الذي لم يحصل لغيره؛ ولهذا لما طمحت نفس موسى عليه السلام إلى رؤية الله تعالى – وطلب ذلك من الله، فأعلمه الله أن ذلك غير حاصل له في الدنيا وغير ممكن - سلاه بما آتاه فقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وكذلك نبّه اللهُ رسولَه وعبادَه المؤمنين على هذا المعنى بقوله: ﴿أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ﴾ [النساء: ٩٠]؛ فإن النظر إلى هذه الحالة – وهو كف أيديهم عن المؤمنين ومسالمتهم - بالنسبة إلى الحالة الأخرى – وهي أن لو شاء الله لسلطهم على المؤمنين فقاتلوهم - مما يهون بها الأمر، فهم وإن لم يكونوا معاونين للمؤمنين؛ فكذلك لم يكونوا معاونين عليهم أعداءهم.

ومما يشبه هذا: أن العبد مأمور أن ينظر إلى من دونه في المال والجاه والعافية ونحوها، لا إلى من فوقه؛ فإنه أجدرُ أن لا يزدريَ نعمة الله عليه[1]، وكذلك إذا ابتلي

---

(١) يشير الشيخ – رَحِمَهُ ٱللَّهُ – إلى ما أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٩٦٣) من حديث أبي هريرة –

=

ببلية فليحمد الله أن لم تكن أعظم من ذلك، وليشكر الله أن كانت في بدنه أو ماله لا في دينه، وصاحب هذه الحال مطمئن القلب، مستريح النفس، صبور شكور.

حكمة الاستئذان حصول الاستئناس

الإتيان بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ [النور: ٢٧] أحسن من قوله: (تستأذنوا)[(١)] لأن ﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ تتضمن الاستئذان وزيادة التعليل، وأن

=

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال: قال رسول الله ﷺ: «**انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله**».

(١) أما ما أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٠٩) أرقام (٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥)، وأبو حاتم في «التفسير» (٨/٢٥٦٦)، والبيهقي في «الشعب» (٨٤٢٢)، من طرق هشيم ومعاذ بن سليمان وأبي عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنه كان يقرأ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا وَتَسْتَأْذِنُوا)، قال: «وَإِنَّمَا ﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ وَهْمٌ مِنَ الْكُتَّابِ».

قلت: وهذا **أثر غريبٌ جدًا** كما قال ابن كثير في «تفسيره» (٦/٣٨)؛ لقوله أن ﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ وهمٌ وخطأ من الذين كتبوا القرآن الكريم، وأن الصواب: (تستأذنوا)!. وهذا مخالف للقراءة العامة التي ثبت نقلها بالتواتر ووقع عليها الإجماع؛ ولأجل ذلك طعن بعضهم في سند هذا الأثر، إلا أنه **سند رجاله ثقات أئمة أجلاء رجال الصحيح**، وصحح الحافظ سنده، كما في «الفتح» (١١/٨)، وقد علق أهل العلم على هذا الأثر بتعليقات مختلفة:

فقال العيني في «عمدة القاري» (٢٢/٢٣٠): «قَالَ ابْن عَبَّاس: إِنَّمَا هُوَ تستأذنوا، وَلَكِن أَخطَأ الْكَاتِب، وَكَانَ أبي وَابْن عَبَّاس وَالْأَعْمَش يقرؤونها كَذَلِك: (حَتَّى تستأذنوا)، وَفِي الْآيَة تَقْدِيم وَتَأْخِير تَقْدِيره: حَتَّى تسلموا على أَهلهَا وتستأنسوا». وقال البيهقي في «الشعب» (١١/٢١٠):

=

=

«يحتمل أن تكون تلك القراءة الأولى ثم صارت القراءة إلى ما عليه العامة ونحن لا نزعم أن شيئا مما وقع عليه الإجماع أو نقل متواترا أنه خطأ وكيف يجوز أن يقال: ذلك وله وجه يصح وإليه ذهبت العامة».

قال أبو حيّان: «ومن روى عن ابن عباس أنَّ قوله: ﴿تَسْتَأْنِسُواْ﴾ خطأٌ أو وَهْمٌ مِنَ الكاتب وأنه قَرَأَ (حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا) **فَهُوَ طَاعِنٌ فِي الإسلام ملحد في الدين** وابن عباس بريء من هذا القول»اهـ من «البحر المحيط» (٦/٤١٠).

أما الحكيم الترمذي فله شأنٌ آخر حيث تكلم بكلام شديدٍ معلقا على هذا الأثر، فقال: «وَمَا رَوَاهُ شُعْبَة عَن أبي بشر عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَن هَذَا خطأ من الْكَاتِب إِنَّمَا هُوَ (تستأذنوا وتسلموا على أَهلهَا) فَهَذَا كَلَام جَاهِل أَو ملحد يكيد الدّين أَو لَيْسَ فِيمَا روى أَبُو أَيُّوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَن رَسُول الله ﷺ فِي تَفْسِير الِاسْتِئْنَاس مَا يبطل هَذَا وَكَانَ كتاب الله تَعَالَى بَين ظهراني أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ فِي مضيعة حَتَّى كتب الْكَاتِب فِيهَا مَا شَاءُوا أَو زادوا أَو نَقَصُوا وَكَانَ الصَّحَابَة أهملوا أَمر دينهم حَتَّى فَوضُوا عهد رَبهم إِلَى كَاتب يُخطئ فِيهِ ثمَّ يَقْرَؤُهُ أَبُو بكر وَعمر وَأبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَيْثُ جَمَعُوهُ فِي خلَافَة أبي بكر ثمَّ من بعده مرّة أُخْرَى فِي زمن عُثْمَان وهم على الْخَطَأ وَشعْبَة وَأَبُو بشر رُوَاة لَا يعْرفُونَ مَا غور هَذَا وَإِنَّمَا يُنكر هَذِه الْأَشْيَاء ويدفعها الرُّعَاة عقلوا عَن الله تَعَالَى وَعَن تَدْبيره فَهموا وهم المقربون أهل الْيَقِين»اهـ من «نوادر الأصول» (٣/٩٠-٩١).

قلت: ولي مع كلامه وقفتان:

أولاً: حديث أبي أيوب الذي أشار إليه، أخرجه ابن ماجه (٣٧٠٧) عن أبي سورة، عن أبي أيوب الأنصاري قال: قلنا يا رسول الله هذا السلام. فما الاستئذان؟ قال ﷺ: «يتكلم الرجلُ تسبيحة وتكبيرة وتحميدة، ويتنحنح، ويُؤذن أهل البيت».

قلت: وفي هذا الحديث علتين؛ الأولى: أبو سورة راويه عن أبي أيوب الأنصاري وهو ابن أخيه: **منكر الحديث**، قاله البخاري والساجي، وضعفه ابن معين جدًا، وجهله الدارقطني وتبعه على ذلك الحافظ في «التلخيص» (١/ ٨٦).

وأما العلة الثانية: فهي الانقطاع؛ فقد قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يُعرف لأبي سورة سماع

=

الحكمة التي شرع الله الاستئذان لأجلها هي: حصول الاستئناس مِن عدم الوحشة، ويدل ذلك أيضاً على أنه يحصل الإذن والاستئذان بكل ما يدل عليه عادة وعرفاً، لكن قد يقال: إن الاستئذان أيضاً يدخل فيه الاستئذان اللفظي والعرفي[(١)]، والله أعلم.

=

من أبي أيوب».

ثانياً: في قول الحكيم الترمذي - رَحِمَهُ ٱللَّهُ -: «وَشعْبَة وَأَبُو بشر رُوَاة لَا يعْرفُونَ مَا غور هَذَا»! اتهامٌ خطير لهذين الإمامين الحافظين، ورمي لهما بغير بينة، وقد يتخذ المرجفون هذا مدخلاً للطعن في بقية مروياتهما في الصحاح وغيرها، وهما أشهر من أن أُعرف بهما هنا إذ المقام لا يتسع، ولكن كلاهما قد توبع أصلاً، فلم ينفرد به شعبة ولا أبو بشر؛ فقد توبع شعبة، تابعه أبو عوانة كما عند البيهقي(٨٤٢١)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٢٥٦٦/٨)، والضياء في «المختارة» (٨٧)، وتابعه أيضًا معاذ بن سليمان، كما عند الطبري في «تفسيره» (٥١٥/١٠٩/١٨).

كما قد تُوبع أبو بشر، فأخرجه البيهقي (٨٤٢٤)، من طريق أبي عُمر الحوضي، قال: نا شعبة، عن أيوب السختياني، عن سعيد عن ابن عباس، فلا يجوز تعليق التهمة برجلٍ تُوبع مع ثقته.

والصواب أن نقول في توجيه هذا الخبر: صحَّ هذا عن ابن عباس نعم، وأنها كانت في قراءة أبي بن كعب، ولكن يمكن الجمع - وهو الأشبه وليس فيه تكلف - بأنَّ قراءة أبي كانت من الأحرف التي ترُكت القراءة بها، ونُسخت بما هو عليه القرأة اليوم، وقد ورد هذا المعنى في كلام الحافظ ابن حجر العسقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا هو الصواب ولا يُحتاج إلى توهيم الثقات بغير حجة فالجة، والله تعالى أعلى وأعلم.

(١) وقد أشار ابن عاشور إلى قريب من كلام المصنف، في «التحرير والتنوير» (١٨/ ١٩٧)، فليرجع إليه.

القرآن هداية عامة والمقصود الأسمى منه هو التدبر والتأمل في آياته

الإتيان باللفظ العام في قوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ الآية [النور: ٢٢] مع أنها نزلت في شأن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حين تألّى أن لا ينفق على «مِسْطَح»(١) حين شايع أهل الإفك(٢)، مما يحقق أن القرآن العظيم نزل هداية عامة، وأنه يتناول: من لم ينزل عليهم

---

(١) وردت الكثير من الآثار في قصة أبي بكر مع مسطح بن أثاثة:

فمن ذلك: ما أخرجه البخاري (٤٤٤١)، ومسلم (٢٧٧٠)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «لَمَّا نَزَلَ هَذَا يَعْنِي قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ فِي عَائِشَةَ، وَفِيمَنْ قَالَ لَهَا مَا قَالَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ لِقَرَابَتِهِ وَحَاجَتِهِ: وَاللَّهِ لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا، وَلَا أَنْفَعُهُ بِنَفْعٍ أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ، وَأَدْخَلَ عَلَيْهَا مَا أَدْخَلَ قَالَتْ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ . الْآيَةَ. قَالَتْ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ نَفَقَتُهُ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا».

(٢) **الإفك**: الكذب، وفي التهذيب: «أفَك يأفِك، وأفِك يأفَك: إذا كذب»، وسموا أهل الإفك لكذبهم وافتراءهم على أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالفاحشة مع صفوان بن المعطل السلمي أحد الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فبرأها الله عَزَّ وَجَلَّ من فوق سبع سموات. والأحاديث الواردة في حادثة الإفك كثيرة:

فمن ذلك: ما أخرجه البخاري في «الشهادات» (٢٦٦١)، وفي «التفسير» (٤٧٥٠، ٤٧٥٧)، ومسلم في كتاب «التوبة» (٢٧٧٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزَاةٍ

=

=

غَزَاهَا، فَخَرَجَ سَهْمِي فَخَرَجْتُ مَعَهُ، بَعْدَمَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ، فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجٍ وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ، وَدَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ، آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي، أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ، فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ أَظْفَارٍ قَدِ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، فَأَقْبَلَ الَّذِينَ يَرْحَلُونَ لِي، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَثْقُلْنَ، وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، وَإِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ حِينَ رَفَعُوهُ ثِقَلَ الْهَوْدَجِ فَاحْتَمَلُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا، فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَمَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنْزِلَهُمْ وَلَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ، فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ فَنِمْتُ.

وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَأَتَانِي، وَكَانَ يَرَانِي قَبْلَ الْحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ، حِينَ أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ يَدَهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ، حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَمَا نَزَلُوا مُعَرِّسِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى الْإِفْكَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ بِهَا شَهْرًا، يُفِيضُونَ مِنْ قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ، وَيَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لَا أَرَى مِنَ النَّبِيِّ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَمْرَضُ، إِنَّمَا يَدْخُلُ فَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تِيكُمْ؟»، لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى نَقَهْتُ، فَخَرَجْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ، مُتَبَرَّزُنَا لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأُوَلِ فِي الْبَرِّيَّةِ، أَوْ فِي التَّنَزُّهِ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ بِنْتُ أَبِي رُهْمٍ نَمْشِي، فَعَثَرَتْ فِي مِرْطِهَا، فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فَقُلْتُ لَهَا: **بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟**

فَقَالَتْ: يَا هَنْتَاهْ أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالُوا، فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا إِلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي، دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَسَلَّمَ، فَقَالَ: «**كَيْفَ تِيكُمْ؟**»، فَقُلْتُ: ائْذَنْ لِي إِلَى أَبَوَيَّ، قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ.

فَأَتَيْتُ أَبَوَيَّ، فَقُلْتُ لِأُمِّي مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ. فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ، هَوِّنِي عَلَى نَفْسِكِ الشَّأْنَ، فَوَاللهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ، عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا، وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا أَكْثَرْنَ عَلَيْهَا، فَقُلْتُ:

=

=

سُبْحَانَ اللهِ، وَلَقَدْ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِهَذَا؟ قَالَتْ: فَبِتُّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ، لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ، يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْوُدِّ لَهُمْ، فَقَالَ أُسَامَةُ: «**أَهْلُكَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَلَا نَعْلَمُ وَاللهِ إِلَّا خَيْرًا**»، وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: «**يَا رَسُولَ اللهِ، لَمْ يُضَيِّقِ اللهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَسَلِ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ**»، فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَرِيرَةَ، فَقَالَ: «**يَا بَرِيرَةُ، هَلْ رَأَيْتِ فِيهَا شَيْئًا يَرِيبُكِ؟**».

فَقَالَتْ بَرِيرَةُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، إِنْ رَأَيْتُ مِنْهَا أَمْرًا أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنِ الْعَجِينِ، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ.

فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ يَوْمِهِ، فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي**».

فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا وَاللهِ أَعْذِرُكَ مِنْهُ: إِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا فِيهِ أَمْرَكَ. فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ، فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ لَا تَقْتُلُهُ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ، وَاللهِ لَنَقْتُلَنَّهُ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ، فَثَارَ الْحَيَّانِ: الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ، حَتَّى هَمُّوا وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَنَزَلَ فَخَفَّضَهُمْ، حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ، وَبَكَيْتُ يَوْمِي لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، فَأَصْبَحَ عِنْدِي أَبَوَايَ، قَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا، حَتَّى أَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي.

قَالَتْ: فَبَيْنَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي، إِذِ اسْتَأْذَنَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَجَلَسَ وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مِنْ يَوْمِ قِيلَ فِيَّ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ مَكَثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي شَيْءٌ، قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ، ثُمَّ قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**».

فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، وَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ

=

من الأمة، ومن نزلت وهم موجودون، ومن كان له سبب بنزولها وغيره، وهكذا يقال

=

عَنِّي رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ اللهِ ﷺ فِيمَا قَالَ، قَالَتْ: وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَالَتْ: وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لَا أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ الْقُرْآنِ، فَقُلْتُ: إِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ، وَوَقَرَ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ، وَاللهُ يَعْلَمُ إِنِّي لَبَرِيئَةٌ، لَا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ، وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ، لَتُصَدِّقُنِّي، وَاللهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ إِذْ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ ثُمَّ تَحَوَّلْتُ عَلَى فِرَاشِي، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يُبَرِّئَنِي اللهُ، وَلَكِنْ وَاللهِ مَا ظَنَنْتُ أَنْ يُنْزِلَ فِي شَأْنِي وَحْيًا، وَلَأَنَا أَحْقَرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ فِي أَمْرِي، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ، فَوَاللهِ مَا رَامَ مَجْلِسَهُ، وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ، حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرَحَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنَ الْعَرَقِ فِي يَوْمٍ شَاتٍ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ لِي: **«يَا عَائِشَةُ، احْمَدِي اللهَ، فَقَدْ بَرَّأَكِ اللهُ»**.

فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: لَا وَاللهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللهَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ الْآيَاتِ.

فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِي الله عنه، وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ: وَاللهِ لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا، بَعْدَ مَا قَالَ لِعَائِشَةَ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ الَّذِي كَانَ يُجْرِي عَلَيْهِ.

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْأَلُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ: يَا زَيْنَبُ، مَا عَلِمْتِ، مَا رَأَيْتِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا خَيْرًا. قَالَتْ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي، فَعَصَمَهَا اللهُ بِالْوَرَعِ».

وحادثة الإفك مبسوطة في كتب «السنن» و«السير» و«التفاسير»، فليرجع إليها من شاء.

في جميع الآيات التي نزلت في قضايا جزئية خاصة ولفظها يتناول القضايا الكلية العامة.

وبهذا ونحوه تعرف أن معرفة أسباب نزول الآيات وإن كان نافعاً فغيره أنفع وأهم منه؛ فتَدبُّر الألفاظ العامة والخاصة، والتأمل في سياق الكلام، والاهتمام بمعرفة مراد الله بكلامه، وتنزيله على الأمور؛ كلها هو الأمر الأهم، وهو المقصود، وهو الذي تعبد الله العباد به، وهو الذي يحصل به العلم والإيمان.

ومما يدل على أن معرفة أسباب النزول ليس كمعرفة معنى ما أراد الله بكلامه: أنه لا يتوقف معرفة معاني القرآن على معرفتها؛ ولذلك تجد المفسرين يذكرون في أسباب النزول أقوالاً كثيرة مختلفة، لا يهتدي الإنسان إلى معرفة الصحيح منها في الغالب، وكذلك المعتنين بها تضعف معرفتهم بتفسير القرآن كما ينبغي.

ولست أقول: إن الاعتناء بأسباب النزول ليس بنافع! بل هو نافع، وقد يتوقف فَهْمُ كمال المعنى عليه!.

وإنما قولي: إن الاعتناء بتدبر الألفاظ والمقاصد هو الأهم، ومع ذلك فإذا عرض للإنسان سبب نزول بعض الآيات ببعض الواقعات فلا يذهب وهمه إليه وحده، بل يكون مرجعه إلى هذا الأصل الكبير، فيعرف أن القضية الجزئية التي نزلت الآية فيها، فيها بعضُ المعنى وفرْدٌ من أفراده؛ فالمعنى قاعدة كلية يدخل فيها أفراد كثيرة، ومن جملة تلك الأفراد تلك الصورة، والله المستعان في جميع الأمور، المرجو لتسهيل كل صعب، والإعانة على كل شديد.

ما يجري على الأخيار فيه النفع لهم ولغيرهم

ما يجري على الأخيار يحصل لهم فيه النفع خصوصاً، ولغيرهم عموماً، وهذا من بركة الله لهم وبركته فيهم، ومِن نصحهم للخلق؛ ولهذا لما رأى سليمان عليه الصلاة والسلام عرشَ ملكة سبأ مستقراً عنده - قد أحضر في أسرع وقت[1] - قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل:

---

(١) يقول تعالى في ذلك: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾، جاء عن عدد من السلف: «هو آصف كاتب سليمان»، وكان آصف هذا رجل مؤمن من الإنس من بني إسرائيل كما قال قتادة فيما أخرجه الطبري (١٩/١٦٣/٧١٠) **بسند صحيح**.

وأخرج اللالكائي في «كرامات أولياء الله» (ص٨١/ ح٢٨)، عن الحسن بن عثمان: ثنا محمد بن عبد الله ثنا إسحاق بن الحسن، قال: ثنا حسين بن محمد الْمَرْوَزِيُّ، قال: ثنا شيبان عن قتادة قال: «﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ وَمَقَامُهُ مَجْلِسُهُ الَّذِي كَانَ يَقْضِي فِيهِ لَا يَفْرُغُ مِنْ قَضَائِهِ حَتَّى يَأْتُوا بِهِ فَأَرَادَ نَبِيُّ اللَّهِ سُلَيْمَانُ مَا هُوَ أَعْجَلُ مِنْ هَذَا ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وَكَانَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَعْلَمُ اسْمَ اللَّهِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾، قَالَ: وَارْتِدَادُ طَرْفِهِ أَنْ يَبْعَثَ رَجُلًا إِلَى مُنْتَهَى طَرْفِهِ فَلَا يَرْجِعَ رَسُولُهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ فَدَعَا الرَّجُلُ بِاسْمِ اللَّهِ، ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

قلت: وهذا أثر **صحيح رجاله ثقات** غير إسحاق بن الحسن الحربي تكلم فيه ابن المنادى، فقال: كتب الناس عنه ثم تركوه لإلحاقات بين السطور في المراسيل ظاهرة الصنعة.اهـ

والصواب في حاله أنه ثقة حجة، كما قال الذهبيُّ في «الميزان» (١/ ١٩٠)، وقد وثقه الدارقطني وعبد الله بن أحمد بن حنبل وغيرهما.

[٤٠] ألا ترى كيف اعترف بفضل الله! وشكر الله على ذلك، وأقر لله تعالى بالحكمة، وأخبر عن كرم الله وسعة غناه، وكان في ضمن كلامه هذا الحض للعباد على هذه الأمور؛ ولهذا أتى باللفظ العام (ومن شكر، ومن كفر).

وإذا تأملت جميعَ القضايا التي تجري على الأنبياء وأتباعهم وورثتهم وجدتها بهذه الحالة ينتفعون بها، وينفع الله بها الخلق بسببهم، فنسأل الله تعالى أن يبارك لنا فيما أعطانا مِن نعم الدين والدنيا؛ فإن بركة الله لا نهاية لها، وجودَه لا حد له، والقليل إذا بارك الله فيه صار كثيراً، ولا قليل في نِعم ربنا! فله الحمد والشكر بجميع أنواعهما حمداً على ما له من أنواع الكمالات، وشكراً على ما أسدى إلى الخلق من الإفضالات والهبات، بالقلب واللسان والجوارح، كثيراً طيبا مباركاً فيه.

الشيء إنْ صح أبطل نقيضه، وعليه فصحة التوحيد إبطال للشرك

إبطال قول الخصم قد يكون بإبطال الدليل الذي استدل به، أو بإبطال دلالته على مطلوبه، وقد يكون بإبطال نفسِ المقالة التي ينصرها وإفسادِها، وقد يكون بإثبات نقيض ما قاله الخصم قولاً ودليلاً؛ لأن النقيض للشيء متى صح أحدُهما بطل الآخر، وقد اجتمعت هذه الأمور في قول يوسف عليه السلام - محتجاً على صحة التوحيد وإبطال الشرك -: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ

﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾[1] [يوسف: ٣٩، ٤٠].

فأبطل الشرك، وصوّر قبحَه عقلاً ونقلاً، وأن ما يُدعى مِن دون الله آلهة متفرقة، كل فريق يزعم صحة قوله وإبطال الآخر! والحال أنه لا فرق بينهما، وأن المشرك فيه شركاء متشاكسون، وأن هذه المعبودات من دون الله ليس فيها شيء من خصائص

---

(١) قال المصنف – رَحِمَهُ ٱللَّهُ – معلقًا على هذه الآية في كتاب «فوائد مستنبطة من قصة يوسف» (ص١٣٧):

«ومن فوائد القصة الإرشاد إلى طريق نافع من طرق الجدال، والمقابلة بين الحق والباطل، وهو بيان ما في الحق من الخير والمنافع العاجلة والآجلة، وما في الباطل من ضد ذلك، قال تعالى في دعوة يوسف للتوحيد: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ فذكر ما في الشرك من القبح وسوء الحال واتباع الظنون الباطلة، وأن كل طائفة من الشرك لهم معبود، إما نار أو صنم أو قبر أو ميت، أو غير ذلك من المعبودات المتفرقة التي لا تملك لنفسها ولا لأهلها نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا. وكل طائفة تضلل الأخرى، وكلهم ضالون هالكون، فهل هذه الأرباب والمعبودات خير أم الله الواحد القهار؟ فذكر له ثلاثة أوصاف عامة عظيمة: أنه الله الذي له الأسماء والصفات العليا، ومنه النعم كلها وبذلك استحق أن يكون الله المألوه، إله أهل الأرض وأهل السماء، وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وأنه الواحد المتفرد بكل صفة كمال، المتوحد بنعوت الجلال والجمال، الذي لا شريك له في شيء من الأفعال ؛ وأنه القهار لكل شيء ؛ فجميع العالم العلوي والسفلي كلهم مقهورون بقدرته، خاضعون لعظمته، متذللون لعزته وجبروته، فمن هذه صفاته العظيمة هو الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، لا شريك له»اهـ

الإلهية؛ فليس فيها كمالٌ يوجب أن تُعبد لأجله! ولا فِعال بحيث تَنفع وتَضر فتُخاف وتُرجى، إنما هي أسماء لا حقائق لها، ومع ذلك ما أنزل الله بها من سلطان على عبادتها، فليس في جميع الحجج الصحيحة ما يدل على صحة عبادتها، بل اتفقت الحجج والبراهين كلها على إبطالها وفسادها، وعلى إثبات العبادة الخالصة لله الواحد الذي انفرد بالوحدانية، والكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي ليس له شبيهٌ ولا نظيرٌ ولا مقارب، وهو القهار لكل شيء، فكل شيء تحت قهر الله، وناصيتُه بيد الله، فالواحد القهار هو الذي يستحق الحبَ والخضوعَ، والانكسارَ لعظمته، والذلَ لكبريائه.

علوم الدين إما مسائل نافعة وإما دلائل مصيبة وكل ذلك في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وسنة رسوله ﷺ

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾ [الأحزاب: ٤].

هذه الآية جمعت كل علم صحيح؛ وذلك أن العلم: إما مسائل نافعة، وإما دلائل مصيبة:

فأنفع المسائل: المشتملة على الحق وهو الصدق والعدل والقسط والاستقامة ظاهراً وباطناً.

أهدى الدلائل وأرشدها: ما هدى السبيل الموصل إلى المطالب العالية، والمراتب السامية.

فالكتاب والسنة كفيلان بهذين الأمرين على أكمل الوجوه، وأتمها وأبينها، وما سوى ذلك فهو باطل وضلال؛ فماذا بعد الحق إلا الضلال، وما بعد الهداية إلى السبيل المستقيم إلا الهداية إلى سبيل الجحيم؟ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣﴾

[الفرقان: ٣٣].

الله لا يهدي من غلبت عليهم الشقوة
ويهدي من سبقت لهم الحسنى
وإن كانوا ممن حارب الله ورسوله ﷺ

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾ [غافر٦].

إن قلت: إن الله أخبر في غير موضع أنه لا يهدي القوم الظالمين، ولا يهدي القوم الفاسقين، والقوم الكافرين، والمجرمين، ونحوهم، والواقع أنه هدى كثيراً من الظالمين والفاسقين، والقوم الكافرين والمجرمين، مع أن قوله صدق وحق، لا يخالفه الواقع أبداً؟!.

فالجواب: أن الذي أخبر أنه لا يهديهم هم الذين حقت عليهم الشقوة وكلمة العذاب، فإنها إذا حقت وتحققت، وثبتت ووجبت؛ فإن هذا لا يتغير ولا يتبدل، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾ [غافر: ٦]، ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٣٣﴾ [يونس: ٣٣]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وغير ذلك من الآيات الدالات على هذا المعنى.

وهؤلاء هم الذين اقتضت حكمة الله تعالى أنه لا يهديهم؛ لكونهم لا يصلحون للهداية ولا تليق بهم، فلو علم فيهم خيراً لأسمعهم، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون، وهم الذين مرروا على أسباب الشقاء ورضوها واختاروها على الهدى.

وأما مَن سبقت لهم من الله الحسنى فإن الله تعالى يهديهم ولو جرى منهم ما جرى؛ فإنه تعالى هدى كثيراً من أئمة الكفر المحاربين له ولرسوله وكتبه فصاروا من المهتدين، والله عليم حكيم؛ فالذين أخبر عنهم أنه لا يهديهم هم الذين حقت عليهم الشقوة، والذين هداهم هم الذين سبقت لهم منه الحسنى؛ فصار النفيُ واقعاً على شيءٍ، ووقوعُ الهداية واقعاً على شيءٍ آخر؛ فلم يحصل تناقض ولله الحمد.

دفع التهمة عن النفس من سمات الأخيار

سعي الإنسان في دفع أسباب التهمة السيئة عن نفسه والعار والفضيحة ليس بعار، بل ذلك من سيم الأخيار، ولهذا لم يُجِب يوسفُ – عليه الصلاة والسلام – الداعيَ حين دعاه إلى الخروج من السجن والحضور عند الملك؛ حتى يتحقق الناسُ براءةَ ما قيل فيه ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ [يوسف: ٥٠][1].

---

(١) استنبط المصنف – رَحِمَهُ ٱللَّهُ – من هذه الآية أن الإنسان لا يلام على دفع التهمة عن نفسه، وله كلام مشابه لهذا في كتبه الأخرى. انظر: «تفسير السعدي»، و«فوائد مستنبطة من قصة يوسف» (ص١٢٤)، وتيسير اللطيف المنان (ص٢٨٢).

وقد وافقه في هذا جماعة من المفسرين: كالبيضاوي، والجصاص، والسيوطي، والألوسي، ومحمد رشيد رضا، وغيرهم. انظر: «الإكليل» (٢/ ٨٧٦)، و«أنوار التنزيل» (٢/ ١٧٧)، و«أحكام القرآن» للجصاص (٣/ ٢٢٤)، و«روح المعاني» (٦/ ٤٤٧)، و«تفسير المنار» (١٢/ ٢٧٠).

ويؤيد هذا المعنى الذي استنبطوه: ما أخرجه البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم (٢١٧٥) أن النبي

=

التوكل على الحي يُحيي القلوب والأمور كلها

لما كان التوكل به حياة الأعمال والأقوال وجميع الأحوال، وبه كمالها؛ قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

فأمر بالتوكل والاعتماد على الحيِّ كاملِ الحياة، فإذا حقق العبد التوكلَ على الحي الذي لا يموت؛ أحيا الله له أمورَه كلها، وكفِلها وأتمها، وهذا من المناسبات الحسنة التي ينتفع العبد باستحضارها وثبوتها في قلبه، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا توكلاً يحيي به قلوبنا وأقوالنا وأفعالنا ودِيننا ودنيانا، ولا يكلنا إلى أنفسنا ولا إلى غيره طرفة عين[(١)]

=

ﷺ قال لرجلين من الأنصار مرا عليه ومعه صفية بنت حيي: «عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ، فَقَالَا: سُبْحَانَ اللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنَ الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا».

قال النووي في شرحه على مسلم (١٤/ ١٣١): «وفيه استحباب التحرز من التعرض لسوء ظن الناس في الإنسان، وطلب السلامة والاعتذار بالأعذار الصحيحة، وأنه متى فعل ما قد ينكر ظاهره مما هو حق، وقد يخفى، أن يبين حاله ليدفع ظن السوء»ا.هـ

(١) معنى الدعاء: لا تتركني إلى نفسي قدر لمحة لأن النفس أمارة بالسوء، وهذا الدعاء الذي دعا به الشيخ، أمرنا النبي ﷺ بالدعاء به عند الكرب، فقال ﷺ: «دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ: «اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ...الحديث». أخرجه أحمد (٩/ ٤٧٢٢)، وأبو داود (٥٠٩٠)، والنسائي في «الكبرى» (٩٧٦٦، ١٠٣٣٢، ١٠٤١٢)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٥ / ٨٢)، وغيرهم من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قلت: وفي سنده جعفر بن ميمون؛ قال ابن معين: «ليس بثقة»، ورغب عنه يعقوب بنُ سفيان، كما في «تاريخه» (٣/ ٤٠)، وقال أحمد والنسائي: «ليس بالقويّ»، وقال البخاريّ: «ليس

=

ولا أقل من ذلك، إنه جواد كريم.

من خصائص كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

اشتملت على فوائد عديدة:

الأولى، والثانية: أن القرآن كلام الله غير مخلوق(١)، وأن الله تعالى عليٌّ على خلقه،

=

بشيء». وهذا الحديث ضعفه النسائي والمنذري وغيرهما.

(١) وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة سلف الأمة وأئمة الحديث القائلين: بأن الكلام صفة من صفات الله عَزَّوَجَلَّ، يَتَكَلَّمُ بِمَا شَاءَ وَمَتَى شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ، وأن القرآن الكريم كلامه سبحانه تكلم به على الحقيقة.

واتفقوا على أن القرآن تكلم به رب العزة على الحقيقة، فسمعه جبريل وبلغه النّبِيّ ﷺ كما سمعه، وعلى الإنكار على من يقول بأن القرآن مخلوق، وجاء عن كثير منهم تَكْفِيرُ هذه الْمَقَالَةِ.

روى اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/٢٣٥)، والبخاري في خلق أفعال العباد (ص١١٧)، بسند صحيح عن عمرو بن دينار أنه قال: «سَمِعْتُ مَشْيَخَتَنَا مِنْ سَبْعِينَ سَنَةٍ يَقُولُونَ الْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ»، قال إسحاق بن راهويه: «وقد أدرك عمرو بن دينار أجلة أصحاب رسول الله ﷺ من البدريين والمهاجرين والأنصار مثل جابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير، وأجلة التابعين رحمة الله عليهم، وعلى هذا مضى صدر هذه الأمة لم يختلفوا في ذلك».اهـ

ثم روى – اللالكائي – عَنْ خمسمائة رجل من التابعين وأتباعهم ومن بعدهم كلهم يقول: «الْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ»، انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/٢٣٤ – ٣١٢).

=

وهذا مأخوذ من قوله: ﴿نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ فإنه نزل به جبريل من الله العزيز العليم؛ فكونه نازلاً من عند الله يدل على علو الله، وكونه أيضاً من عنده يدل على أنه كلام الله؛ فإن الكلام صفة للمتكلم ونعت من نعوته.

الثالثة: عظمةُ القرآن ورفعةُ قدره وعلوُّ شأنه؛ حيث أخبر تعالى في هذه الآية بما أخبر، أنه الذي تولى إنزاله وحفظه، ولم يَكِل ذلك إلى أحد من خلقه.

الرابعة: أن القرآن مشتمل على كل ما يحتاج العباد إليه من أمور الدنيا وأمور الدين، ومن الأحوال الظاهرة والباطنة.(١)

=

ثم قال: «فَهَؤُلَاءِ خَمْسُمِائَةٍ وَخَمْسُونَ نَفْسًا أَوْ أَكْثَرَ، مِنَ التَّابِعِينَ وَأَتْبَاعِ التَّابِعِينَ، وَالْأَئِمَّةِ الْمَرْضِيِّينَ سِوَى الصَّحَابَةِ الْخَيِّرِينَ، عَلَى اخْتِلَافِ الْأَعْصَارِ، وَمُضِيِّ السِّنِينَ وَالْأَعْوَامِ». وانظر في قول أهل السنة: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٢/١٦٢، ١٧٥)، مختصر الصواعق (٢/٢٨٦، ٢٩٣)، شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (١/١٧٢ وما بعدها).

وأما القائلون بخلق القرآن: فأول من قال بخلق القرآن هو الجعد بن درهم، قال اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٢/ ٣١٢): «**لا خلاف بين الأمة** أن أول من قال: القرآن مخلوق، هو الجعد بن درهم في سنة اثنين وعشرين، ثم الجهم بن صفوان»اهـ بتصرف.

والقائلون بخلق القرآن بعده، هم: الجهمية والمعتزلة، والخوارج، وأكثر الزيدية وبعض الإمامية، وبعض متأخري المتكلمين من الأشاعرة والماتريدية، والمرجئة، وكثير من الرافضة. انظر: لوامع الأنوار (١/ ١٣٣)، مجموع الفتاوى (١٢/١٦٣)، الخوارج تاريخهم واعتقاداتهم (ص٢٨٦)، فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٤٥٥)، مقالات الإسلاميين (٢/٢٥٦).

(١) وتلك خصيصة اختص الله بها القرآن دون غيره من الكتب المنزلة على الأنبياء؛ لأن كل نبي نزل عليه من التشريعات ما يتناسب مع عصره فلم تكن شاملة لكل العصور، ولما كان نبينا محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والرسل نزل الدستور الذي تصلح به الدنيا إلى قيام الساعة وهو القرآن فيه

=

فإن معنى الذكر: أنه متضمن لتذكير العباد وتنبيههم لكل ما يحتاجون إليه، وتتعلق به منافعهم ومصالحهم، والأمر كذلك؛ فإنه مشتمل على أمور الدين والدنيا ومصالحهما، على أكملِ وجه وأشملِه، بحيث لو تذكر الخلق بتذكيره، ومشوا على إرشاده؛ لاستقامت لهم جميع الأمور، ولاندفعت عنهم الشرور؛ ولهذا أكثر الله في القرآن من حث العباد على الاهتداء به في كل شيء، والتفكر والتدبر لمعانيه النافعة ويترتب على هذا المعنى:

الفائدة الخامسة: وهي أن من قام بالقرآن وتذكر به كان رفعة له، وشرفاً وفخراً، وحسنَ ذِكر وثناء، وبهذا أول قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي: شرفٌ ورفعةٌ لمن تذَكَّر به واستقام عليه.

السادسة: إن التذكر بغيره غيرُ مفيدٍ ولا مجد على صاحبه نفعاً؛ لأنه إذا ثبت وتقرر أنه مادة التذكير لجميع المنافع؛ عُلم أن ما ناقضه وخالفه فهو بضد هذا الوصف؛ ولهذا أتى بالألف واللام المفيدة للاستغراق والعموم.

السابعة: أنه أتى بما يوافق العقل الصحيح والفطر المستقيمة، فليس فيه شيء مخالف ولا مناقض للمحسوس، ولا معاكس للقياس الصحيح، ولا مضاد للعدل والقسط والميزان والحق؛ لأن اللهَ سماه ذكراً، والذكر هو الذي يُذكِّر العبادَ ما تقرر من فطرهم السليمة وعقولهم الصحيحة – من الحق والحث على الخير والنهي عن الشر -

=

كمل الدين وتمت النعمة كما قال سبحانه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾.

فهو مُذكّر لهم ما عرفوه مجملاً، ولم يهتدوا إلى كثير من تفاصيله، فبه تزداد العقول، وتتفتق الأذهان، وتزكو الفِطَر، ولشيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - في هذا المعنى كتاب: «موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح»[١].

الثامنة والتاسعة: أن الله تكفل بحفظه حال إنزاله، فلا يمكن أن يقربه شيطان فيغيره ويزيد فيه وينقص، أو يختلط بغيره، بل نزل به القويُ الأمينُ جبريلُ على قلب الرسولِ محمد ﷺ القلبِ الزكي الذكي، الذي هو أكمل قلوب الخلق على الإطلاق، وضَمِن اللهُ لرسوله قرآنه وبيانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ [القيامة: ١٨، ١٩] وتكفّل اللهُ أيضاً بحفظه بعدما نزل وتقرر، فأكمله الله تعالى، وأكمل به على عباده النعمة، واستحفظه لهذه [الأمة][٢] على اختلاف طبقات علمائها وأئمتها، ووكلهم به، وائتمنهم عليه؛ فكل قرنٍ حمل عدولُه وأزكياؤه - الذين ضمن الله لهم العصمة عند اتفاقهم – ألفاظَه ومعانيه غضةً طرية، لا تغيير فيها ولا تبديل، وكل من أراد إدخال شيء فيه أو إخراج شيء منه؛ قيّض الله من يذب عنه ويحفظه، وهذا من

---

(١) وهو المطبوع باسم: «درء تعارض العقل والنقل»، وهو كتاب نفيس جدا قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الكتاب: «فإنه كتاب لم يطرق العالم له نظير في بابه، فإنه هدم فيه قواعد أهل الباطل من أساسها، فخرت عليهم سقوفه من فوقهم، وشيد فيه قواعد أهل السنة والحديث، وأحكمها ورفع أعلامها، وقررها بمجامع الطرق التي تقرر بها الحق من العقل والنقل والفطرة، فجاء كتابا لايستغنى من نصح نفسه من أهل العلم عنه، فجزاه الله عن أهل العلم والإيمان أفضل جزاء، وجزى العلم والإيمان عنه كذلك»اهـ من «طريق الهجرتين» (ص١٩٥).

(٢) سقط من بعض المطبوع.

حفظه، ويؤيد هذا:

الفائدة العاشرة: أن هذا من أدلة صدقه وصدق ما اشتمل عليه، وصدق مَنْ جاء به – وهو محمد ﷺ- فإنه تعالى خبّر بأنه أنزله، وأنه حافظ له؛ فوقع كما أخبر الله تعالى، فصار هذا آية وبرهاناً على صدقه، وصحة ما جاء به، كما يشهد بذلك الواقع.

فائدة عظيمة ومبحث بديع
في معاني أدعية القرآن الكريم

فائدة عظيمة: لما كان الدعاءُ مخ العبادة[1] ولبُّها وخالصها - لكونه متضمناً للافتقار التام لله، والخشوع والخضوع بين يديه، وتنوع عبوديات القلب، وكثرة المطالب المهمة – كان أفضلُه وأعلاه ما كان أنفعَ للعبد، وأصحَّ من غيره، وأجمع لكل خير، وتلك أدعية القرآن التي أخبر الله بها عن أنبيائه ورسله وعباده الأخيار، التي كان سيد المرسلين يختارها على غيرها.

ولما كان من شروط الدعاء وآدابه: حضور قلب الداعي، واستحضاره لمعاني ما يدعو به؛ أحببت أن أُنبّه تنبيهاً لطيفاً على معاني أدعية القرآن؛ ليسهل استحضارُها فيعظم انتفاعُ العبد بها، فأفضل أدعية القرآن وأفرضُها قولُه تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ

---

(١) حديث: «الدعاء مخ العبادة». أخرجه الترمذي (٣٣٧١)، والطبراني في «الدعاء» (٨)، وفي «الأوسط» (٣١٩٦). **وسنده ضعيف**؛ فيه ابن لهيعة: وهو ضعيف كما سبق بيانه، كما قد تفرد به، قال الترمذي عقبه: «هذا حديث غريب من هذا الوجه، لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة».

ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]

أي: علِّمْنا يا ربنا وألهِمْنا ووفقنا لسلوك الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، المشتمل على علم ما يحبه الله ورسوله ومحبتِه، وفعله على وجه الكمال، وعلم ما يكرهه الله ورسوله ويُغضبه وتركُه من كل وجه، وحقيقة ذلك: أن الداعي بهذا الدعاء يسأل اللهَ تعالى أن يهديه الصراط المستقيم، المتضمن لمعرفة الحق والعمل به، ويجنبه طريق المغضوب عليهم؛ الذين عرفوا الحق وتركوه، وطريق الضالين؛ الذين تاهوا عن الحق فلم يعرفوه.

ومن أجمع الأدعية وأنفعها: دعاء أرباب الهمم العالية، الذين جمع الله لهم بين خيري الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١﴾ [البقرة: ٢٠١] فصدَّروا دعاءهم بقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾ وذلك متضمن لاستحضارهم معنى تربية الله العامة، وهو الخلق والتدبير، وإيصال ما به تستقيم الأبدان، والتربيةِ الخاصة لخيار خلقه، الذين رباهم بلطفه وأصلح لهم دينهم ودنياهم، وتولّاهم فأخرجهم من الظلمات إلى النور، وهذا متضمنٌ لافتقارهم إلى ربهم، وأنهم لا يقدرون على تربية نفوسهم من كل وجه، فليس لهم غير ربهم يتولاهم ويصلح أمورهم، ولهذا كانت أغلب أدعية القرآن مصدرة بالتوسل إلى الله بربوبيته؛ لأنها أعظم الوسائل على الإطلاق التي تحصل بها المحبوبات وتندفع بها المكروهات.

وحسنة الدنيا: اسم جامع للعلم النافع والعمل الصالح، وراحة القلب والجسم، والرزق الحلال الطيب - من كل مأكلٍ ومشربٍ وملبسٍ ومنكحٍ ومسكنٍ، ونحوِها - فهي اسمٌ جامعٌ لحُسن الأحوال، وسلامتها من كل نقص.

وأما حَسَنة الآخرة: فهي كل ما أعده الله لأوليائه في دار كرامته مما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خَطَر على قلبِ بَشر(١).

ولما كانت حسنة الدنيا والآخرة تمامها وكمالها الحفظ من عذاب النار، والحفظ من أسبابه - وهو الذنوب والمعاصي - قالوا: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١﴾ فاشتمل هذا الدعاء على كل خيرٍ ومطلوبٍ محمود، ودفع كل شرٍ وعذاب، ولهذا كان النبي ﷺ يدعو بهذا الدعاء كثيراً(٢).

ومن ذلك: الدعاء الذي في آخر «البقرة» الذي أخبر اللهُ على لسانِ رسوله أنه قَبِلَه مِن المؤمنين حين دَعوا به(٣): ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ

---

(١) **متفق عليه**: يشير المصنف - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - إلى ما أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٧٢٣٤)، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عَزَّوَجَلَّ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٢٢)، وأخرج أحمد (١٢٠٠٤) **بسند صحيح** عن عبد العزيز بن صُهَيب، قال: سأل قتادة أنسا: أي دعوة كان أكثر يدعو بها النبي ﷺ؟ قال: «كان أكثر دعوة يدعو بها رسول الله ﷺ: اللَّهُمَّ ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار».

(٣) يشير إلى ما أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٠٠)، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ﴾ قال: دخل قلوبهم منها شيء، لم يدخل قلوبهم من شيء، فقال النبي ﷺ: «قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا، قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾ قال: قد فعلت ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ﴾ قال: قد فعلت ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ قال:

=

إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾[1] [البقرة: ٢٨٦].

ولما كان إخلال العبد بأمر الله قد يكون عمداً على وجه العلم، وقد يكون نسياناً وخطأ، وكان هذا القسمُ غيرَ ناشئٍ عن عمل القلب الذي هو محل الإثم وعدمه؛ سألوا ربهم أن لا يؤاخذهم بالنسيان والخطأ، وذلك عامٌّ في جميع الأمور، قال الله تعالى: «قد فعلتُ» ولما كانت بعض الأفعال فيها شدة ومشقة وآصار وأغلال، لو كُلِّف العباد بها لأحرى أن لا يقوموا بها؛ سألوا الله تعالى ألا يحملهم إياها، ولا يكلفهم بما لا طاقة لهم به؛ ليسهل عليهم أمرُ ربهم، وتخف عليهم شرائعه الظاهرة، فقال الله تعالى: «قد فعلت»[2].

ولما كانت أيضاً الشرائع التي شرعها الله لعباده لا بد أن يحصل منهم التقصير فيها – إما بفعل محظور، أو بترك مأمور - وذلك موجبٌ للشر والعقوبة إن لم يغفره الله ويزله؛ قالوا: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ فبهذه الأمور تندفع المكروهاتُ والشرورُ كلُّها، ثم سألوا الله بعد ذلك الرحمةَ التي ينشأ عنها كلُّ خير في الدنيا والآخرة.

=

قد فعلت».

(١) قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري – رَحِمَهُ ٱللَّهُ – في «تفسيره»: «هذا تعليم من الله عزّ وجل عباده المؤمنين دعاءه كيف يدعونه، وما يقولونه في دعائهم إياه. ومعناه: قولوا: «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا»: شيئا فرضت علينا عمله فلم نعمله، «أو أخطأنا» في فعل شيء نهيتنا عن فعله ففعلناه، على غير قصد منا إلى معصيتك، ولكن على جهالة منا به وخطأ».

(٢) أخرجه مسلم، وسبق ذكره بتمامه.

ولما كان أمر الدين والتمكين – مِن فعل الخير وترك الشر - لا يحصل ولا يتم إلا بولاية الله وتولّيه، ونصرته على الأعداء الكافرين – من الشيطان وجنوده – قالوا: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ قال تعالى: «قد فعلت» فالله تعالى يتولى عبده، وييسره لليُسرى في جميع الأمور؛ فيدفع عنه الشرور، فهو نِعم المولى ونِعم النصير.

ومن هذا: دعاء الراسخين في العلم بعد الثناء عليهم بالإيمان التام: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨] فسألوا ربهم وتوسلوا بربوبيته في حصول أفضل الوسائل؛ وهو استقامة القلوب على ما يحبه الله ويرضاه، والثبات على ذلك، وعدم زيغها عن هذه الهداية، وأجلِّ المقاصد، وهو حصول رحمة الله تعالى التي يحصل معها خير الدنيا والآخرة، وختموا دعاءهم بالتوسل إلى ربهم باسمه (الوهاب).

أي: كثير العطايا، واسع الكرم: فمن كرمك يا وهاب نسألك الاستقامة وعدم زيغ القلوب، وأن تهب لنا من لدنك رحمة؛ لأن الرحمة التي من لدنه لا يُقدّر قدرها، ولا يعلم ما فيها من البركات والخيرات إلا الذي وهبهم إياها، ويشبه أن يكون قولهم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾ [آل عمران: ٩] توسلاً إلى ربهم بإيمانهم بهذا اليوم، وتصديق ربهم في وعده ووعيده، فإن التوسل إلى الله بالإيمان ومنّة الله به من الوسائل المطلوبة؛ فيكون هذا من تمام دعائهم.

كذلك: دعاء المتقين الذين أعد لهم الجنة وما فيها الذين يقولون: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [آل عمران: ١٦] فتوسلوا بربوبية الله لهم وبإيمانهم أن يغفر لهم الذنوب وأن يقيهم عذاب النار، وإذ غُفرت ذنوبهم ووقاهم الله

عذاب النار زال عنهم الشر بأجمَعه، وحصل لهم الخير بأجمَعه؛ لأن الأدعية هكذا تارة تأتي مطابقة لجميع مطالب العبد، وتارة يُذكر نوعٌ منها ويدخل الباقي باللزوم، كهذا الدعاء.

ومما أتى فيه الدعاء بجميع المطالب على وجه المطابقة: دعاء أولي الألباب وخواص الخلق حيث قالوا – بعدما تفكروا بما في ملكوت الله -: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران: ١٩١ – ١٩٤] فتوسلوا بربوبية الله، وكرروا هذا التوسل، وإقرارهم بحكمة الله وصدق وعده ووعيده، وإيمانِهم برسل الله حين دعوهم إلى الإيمان، ومِنّة الله عليهم بالمبادرة بذلك أن يَقيْهم عذابَ النار، وأن يغفر ذنوبهم الكبار، ويُكفّر عنهم سيئاتهم الصغار؛ فيدفع عنهم أعظم العقوبات – وهو عذاب النار – ويزيل عنهم أسبابَ الشرور كلَّها، وهي الذنوب والسيئات، وأن يرزقهم اللهُ ويوفقهم لأعمال البِر كلِّها؛ فيصيروا بذلك من عباد الله الأبرار، وأن يثبتهم عليها حتى يموتوا عليها؛ فيدخلوا في معية الأبرار، وأن يؤتيَهم ما وعدهم على ألْسِنة رسله وذلك شامل لعطايا الدنيا وخيراتها وعطايا الآخرة وكراماتها، وأن يكرمهم في يوم القيامة ولا يخزهم.

وحقيقٌ بقوم دعوا بهذه الأدعية الجليلة – بحيث ما بقي خير إلا سألوه ولا شر إلا استدفعوه – أن يسميهم الله أولي الألباب؛ فهذا من لبهم وعقلهم وتمام فطنتهم، نسأله تعالى أن يوفقنا لما وفقهم له، إنه جوادٌ كريم.

وِمن ذلك: دعاء أتباع الأنبياء في مواطن الشدائد وأنواع المحن: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٧، ١٤٨] فدل هذا على الدعاء من الدعاء الذي استجابه الله، وأن أهله محسنون فيه، وذلك أنهم توسلوا إلى الله بربوبيته، فافتقروا إليه وطلبوا أن يرُبَّهم بما يُصلِح أحوالهم، وأن يغفر لهم الذنوب - وهي المعاصي المستقلة – وإسرافنا في أمرنا – وهي تعدي ما حد للعبد ونهي عن مجاوزته – فكما أن التقصير يلام عليه الإنسان فكذلك المجاوزة للحد، وأن يثبت أقدامهم فيرزقهم الصبرَ والثباتَ، والقوةَ التي هي مادة النصر، وأن يُمِدهم بمَدَدَه الإلهي وهو نصره على القوم الكافرين، فسألوا ربَّهم زوالَ المانع من النصر – وهي الذنوب والإسراف – وحصولَ سببِ النصر وهو نوعان:

١- **سبب داخلي**: وهو ثباتُ الأقدام والصبر عند الإقدام.

٢- **وسبب خارجي**: وهو نصره، ويشبه أن يكون قولهم: ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ توسلاً إلى الله، وأننا يا ربنا آمنا بك واتبعنا رسلك، وحاربنا أعداءك الذين كفروا بك وبرسلك، فمعاداتُنا لهم وقتالُنا إياهم لأجلك وفي سبيلك؛ فانصرنا عليهم لكوننا من حزبك وجندك، وهم جنود عدوك الشيطان الرجيم.

وِمن ذلك: دعاءُ عبادِ الرحمن الذين وصفهم الله بكل خُلقٍ جميل، وأعد لهم المنازل العالية؛ فدعوا بدعوتين: دعوةٍ استُجيبت لجميعِهم - كاملَ الدرجة ومَن دونه – ودعوةٍ استُجيبت لخواصهم وأئمتهم وقدوتهم.

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ - إلى أن قال عنهم -:

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥﴾ [الفرقان: الآيات ٦٣ – ٦٥] فتوسلوا بربوبية الله لهم – وإيمانهم وخوفهم من عذابه – أن يقيهم عذاب النار، وإذا وقاهم الله عذاب النار كان من لازم ذلك مغفرة ذنوبهم، وتكفير سيئاتهم، ودخولهم الجنة.

وقال تعالى عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤﴾ [الفرقان: ٧٤] فتوسلوا بربوبية الله أن يهب لهم من أزواجهم وقرنائهم وذرياتهم ما تَقَرُّ أعيُنهم به، وهو أن يكونوا مطيعين لله، عاملين بمرضاته، وذلك دليل على أن طاعةَ الله قرةُ أعينهم ومحبتَه نعيمُ قلوبهم، فقويت هذه الحالة إلى أن سألوا اللهَ تعالى أن يجعل قرناءهم بهذه الحالة الكاملة، وذلك مِن فضل الله عليهم؛ فإن الله إذا أصلح قرناءَهم عاد مِن هذا الخير عليهم شيءٌ كثير، ولهذا جعلوا هذا من مواهب ربهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا هَبۡ لَنَا﴾ إلخ، ولما كان غاية كمال الإنسان أن يكون مطيعاً لله، وأن يكون قريناً للمطيعين؛ سألوا ربهم أعلى المراتب وأجلَّها، وهي الإمامة في الدين، وأن يكونوا قدوةً للمتقين، وذلك أن يجعلهم علماءَ ربانيين، راسخين في العلم مجتهدينَ في تعلُّمه وتعليمه والدعوةِ إليه، وأن يكون علمُهم صحيحاً؛ بحيث أن من اقتدى بهم فهو من المتقين، وأن يرزقهم من الأعمال الظاهرة والباطنة ما يصيرون به أئمةً للمتقين.

وجِماع ذلك: الصبرُ على محبوبات الله، وثباتُ النفس على ذلك، والإيقانُ بآيات الله، وتمامُ العلم بها، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ فالحاصل أنهم سألوا ربهم أن يكونوا كاملين مكملين لغيرهم، هادين مهتدين، وهذه أعلى الحالات، فلذلك أعد الله لهم أعلى غرف الجنان: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ

يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾[الفرقان: ٧٥، ٧٦].

ومن ذلك: دعاء آدم عليه السلام حين تاب إلى الله وتلقى منه هذه الكلمات هو وزوجه: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣] فتوسلا بربوبية الله واعترافهم بالظلم، وإقرارهم بالذنب أن يغفر لهما؛ فيزيل عنهما المكاره كلها، وأن يرحمهما فيعطيهما أنواع المطالب، وأنه لا وسيلة لهما ولا ملجأ منه إلا إليه، وأنه لئن لم يرحمهما ويغفر لهما خسِرا الدنيا والآخرة؛ فقبل الله دعاءهما وغفر لهما ورحمهما.

ومثل قول نوح لما لامه اللهُ بسؤال نجاة ابنه الكافر، الذي ليس من أهله، وأن هذا عمل غير صالح، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود: ٤٧] فتوسل بربوبية الله واستعاذ به أن يسأله سؤالاً ليس له به علم، وإنما حمله عليه مجرد محبة النفس لا إرادة رضى الله، واعترف بأن هذا الذي جرى منه يوجب التضرع والاستغفار، وأنه إن لم يغفر له ربُه ويرحمه كان من الخاسرين، فالناس قسمان:

رابحون: وهم الذين تغمدهم الله بمغفرته ورحمته.

وخاسرون: وهم الذين فاتتهم المغفرة والرحمة، ولا يحصل ذلك إلا بالله.

ومن ذلك: دعاء إبراهيم خليل الرحمن، وابنه إسماعيل، وهما يرفعان قواعد البيت: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٧، ١٢٨] فتضرعا إلى ربهم في قبول الله عملهما، وأن يكون كاملاً من كل وجه، وتحصل منه الثمرات النافعة، وتوسلا إليه بأنه السميع لأقوالهما، العليم بجميع أحوالهما، ولما

دعوا بهذا الدعاء الخاص في قبول عملهما سألا اللهَ أجلّ الأمور وأعلاها، وهو أن يمن الله عليهما وعلى من شاء من ذريتهما بالإسلام لله ظاهراً وباطناً والعمل بما يحبه ويرضاه، وأن يعلمهما العمل الذي شرعا فيه، ويكمّل لهما مناسكهما – علماً ومعرفةً وعملاً – وأن يتوب عليهما لتتم أمورهما من كل وجه؛ فاستجاب الله هذا الدعاء كله، وبارك فيه وحقق رجاءهما، والله ذو الفضل العظيم.

وكذلك: دعاء يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١] فتوسل إلى الله بربوبيته وبنعمة الله عليه بنعمة الدنيا وهي: الملك وتوابعه، ونعمة الدين وهي: العلم الكامل، وبولاية الله وانقطاعه عن غيره، وتولي الله له في الدنيا والآخرة: أن يثبته على الإسلام الظاهر والباطن حتى يلقاه عليه، فيدخله في خُلص عباده الصالحين.

ومن ذلك: دعاء سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٩] فتوسل إلى الله بربوبيته، وبنعمته عليه وعلى والديه؛ أن يوزعه أي يلهمه ويوفقه لشكرها بالاعتراف بها، ومحبته لله عليها والثناء عليه، والإكثار من ذكره، وأن يوفقه عملاً صالحاً يرضاه، ويدخل في هذا جميع الأعمال الصالحة ظاهرها وباطنها، وأن يدخله برحمته في جملة عباده الصالحين، وهذا الدعاء شاملٌ لخير الدنيا والآخرة. ومثل هذا: دعاء الذي بلّغه اللهُ أشُدّه وبلغه أربعين سنة، ومَنّ عليه بالإنابة إليه فقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف: ١٥] فتوسل بربوبية ربه له، وبنعمته عليه وعلى والديه، وبالتزام ترك ما يكرهه ربُّه بالتوبة وفعل ما يحبه بالإسلام أن يمُنّ عليه بالشكر المتضمن لاعتراف القلب وخضوعه ومحبته للمنعم،

والثناء على الله مطلقاً ومقيداً، وأن يوفّقه لما يحبه الله ويرضاه، ويصلح له في ذريته، فهذا دعاء محتوٍ على صلاح العبد، وإصلاحِ اللهُ له أمورَه كلّها، وإصلاحِ ذريته في حياته وبعد مماته، وهو دعاء حقيقٌ بالعبد - خصوصاً إذا بلغ الأربعين - أن يداوم عليه بذُل وافتقار؛ لعله أن يدخل في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف: ١٦].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ مستريحاً لذلك الظل بعد التعب، فقال في تلك الحالة مسترزقاً: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: ٢٤] أي إني مفتقر للخير الذي تسوقه إلي، وتيسره لي، وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال قد يكون أبلغ من السؤال بلسان المقال، فلم يزل في هذه الحالة راجياً ربه، متملقاً مفتقراً إليه، معلقاً رجاءَه بالله وحده؛ حتى فرّج كربَه، وجلاّ همّه، والله هو الرزاق.

ومن ذلك: الأدعية التي أمر الله بها رسوله وعباده المؤمنين فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون: ١١٨] فهذا توسل إلى الله بربوبيته ورحمته الواسعة في حصول الخير، ودفع الشر كله، وهي المغفرة التي تندفع بها المكروهات، والرحمة التي تحصل بها جميع المحبوبات.

وكذلك قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء: ٨٠] فهذا توسّلَ إلى الله بربوبيته أن تكون مداخل العبد ومخارجه كلها صدقاً، وذلك أن تكون صالحةً خالصةً لوجه الله، مقرونةً بالاستعانة بالله والتوكل عليه، وذلك يستلزم أن تكون حركاتُ العبد كلُّها - ظاهرها وباطنها - طاعةً لله وعملاً بما يحبه ويرضاه، وهذا هو الكمال من جهة العمل، وأما الكمال من جهة العلم: فإنه يجعل اللهُ له سلطاناً نصيراً، أي حجة ظاهرة ناصرة، وقوة يحصل بها نصر الحق وقمع الباطل، فيحصل باستجابة هذا الدعاء: العلمُ النافع والعملُ

الصالح، والتمكين في الأرض.

وقال تعالى لرسوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤] فالعلم أجلّ الأشياء، وبه تعرف جميع الأشياء، فسؤاله وسؤال الزيادة منه من أفضل ما سأل السائلون.

ومن أجمع الأدعية وأحسنها توسلاً: دعاء موسى عليه السلام حين تضرع إلى ربه فقال: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي﴾ [الأعراف: ١٥٥، ١٥٦] فتوسل إلى وليّه بولايته لعبده، وحسن تدبيره وتربيته ولطفه، على حصول المغفرة والرحمة، وكذلك توسل بكمال مغفرة الله وسعة جوده على هذا، ورتب على هذا حصولَ حسنة الدنيا والآخرة؛ فإنه إذا حصلت المغفرة زالت الشرورُ كلُّها، والعذابُ كله، وإذا حصلت الرحمة حل الخير وحسناتُ الدنيا والآخرة، فيكون قوله: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ نظير قوله: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] مع زيادة التوسل بولاية الله، وكمال غفرانه، ومع طلب مغفرته ورحمته اللذين بهما تنال حسنة الدنيا والآخرة، ثم ختم دعاءه بالتوسل إلى ربه بالإقبال إليه، والإنابة إليه والتذلل، لعظمته فقال: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي رجعنا إليك في مهماتنا وأمورنا، لا نرجع إلى غيرك لعلمنا أنه لا يكشف السوء ولا يجيب المضطر إلا أنت، ورجعنا إليك في عباداتنا الظاهرة والباطنة.

ومن ذلك: دعاء أصحاب الكهف إذ فروا إلى الله بدينهم فقالوا ملتجئين إليه: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف: ١٠] فتضرعوا إليه في أن يؤتيهم من لدنه رحمة بحيث إذا حلت عليهم سلّم لهم دينهم، وحفظهم من الفتن، وأنالهم بها الخير، وأن يهيئ لهم من أمرهم رشداً أي: ييسرهم لليسرى، ويسهل لهم الأمور، ويرشدهم إلى أرفق الأحوال؛ فاستجاب لهم هذا الدعاء، ونشر عليهم رحمته، وحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعل فيهم بركة على أنفسهم وعلى غيرهم.

ومن ذلك: دعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة المقربين، حين دعوا للمؤمنين: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝٧ وَرَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ۚ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٩﴾ [غافر: ٧ - ٩] وهذا دعاء جامع، وتوسُّلٌ نافع، فتوسلوا بربوبية الله تعالى، وسعة علمه ورحمته المتضمن علمَه بحال المؤمنين، وما خلقهم عليه من الضعف، ورحمتَه إياهم - لكونه جعل الإيمان أعظم وسيلة تنال بها رحمته - أن يغفر للمؤمنين الملتزمين للإيمان، وهم الذين تابوا مما يكرهه الله، واتبعوا سبيله بالتزام ما يحبه ويرضاه، فيغفر ذنوبهم، ويقيهم أشد العذاب وهو عذاب الجحيم، وأن يُنيلهم أعظمَ الثواب - وهو دخول جنات عدن التي وعدهم على ألسنة رسله - وتمام ذلك: أن يُقِرّ أعينَهم باجتماعهم بآبائهم وأزواجهم وذرياتهم الصالحين، ثم توسلوا بكمال عزة الله وكمال حكمته؛ لأن المقام يناسب هذا، فمن كمال عزته واقتداره: أن يحفظهم ويحول بينهم وبين السيئات، ويصرف عنهم السيئات، وينيلهم أنواع المثوبات، ومن كمال حكمته أن الموصوفين بتلك الصفات هم أهل لأن يغفر لهم ويرحمهم، ويدفع عنهم السوء وينيلهم الأجر، ولما دعوا أن يغفر لهم السيئات التي فعلوها؛ دعوا اللهَ أن يقيهم سيئات أنفسهم الأمارة بالسوء، بأن يحبب إليهم الإيمان ويزينه في قلوبهم، ويُكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ويجعلهم من الراشدين، وأن مِن لازم وقاية السيئات حصول رحمة الله، وهذا دعاءٌ عظيم صادر من أعظم الخلق معرفة بالله، ولذلك وصف الله من حصلت له هذه الأمور بالفوز بكل مطلوب، والنجاة من كل مرهوب فقال: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝١١١﴾.

وكذلك: دعاء الذين اتبعوا المهاجرين والأنصار بإحسان، حيث قال تعالى عنهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا

تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر: ١٠] فتضرعوا إلى ربهم، وتوسلوا إليه بربوبيته ونعمته عليهم بالإيمان، وبسعة رحمته ورأفته أن يغفر لهم ولجميع إخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان، وأن يُصلح اللهُ قلوبهم بالاجتماع على الإيمان، ومحبة بعضهم بعضاً، وأن لا يجعل في قلوبهم أدنى غل لكل من اتصف بالإيمان.

وهذا الدعاء يتضمن حصول الخير لهم ولإخوانهم، ودفع الشر عنهم وعن إخوانهم، وقد أخبر الله أن أنبياءه تضرعوا إليه في مطالب خاصة، ومطالب عامة، وتوسلوا بكمال أسمائه وصفاته، وبما مَنَّ اللهُ عليهم به من الإيمان والنعم الدينية والدنيوية، وبما كانوا عليه من الفقر والضعف، وشدة الضرورة إلى ربهم في جميع أمورهم، فهذه الأدعية التي أمر اللهُ بها، وحث عليها ومدح أهلها، هي الأدعية النافعة التي لا يليق بالعبد أن يختار عليها غيرَها من الأدعية المصطلَحَة، والألفاظ المخترعة، التي لا نسبة لها إلى هذه الألفاظ القرآنية!

إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم من الأعمال والأقوال، الباطنة والظاهرة، ومن ذلك الأدعية، وكم في السنة من الأدعية النبوية مما يوافق الأدعية القرآنية! فنسأله تعالى أن يهدينا لأحسن الأمور، ويصرف عنا جميع الشرور، إنه جواد كريم رءوف رحيم.

فصل

إذا حكم الحاكم بالحق فقد سلك سبيل الأنبياء

إذا وُفِّق الحاكم أن يحكم بالحق والعلم، لا بالجهل والباطل، وبالعدل وحسن

القصد، لا بالظلم واتباع الهوى؛ فقد سلك سبيل الأنبياء، قال تعالى لداود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ [ص: ٢٦].

النجاة من العذاب والنعيم في الجنة وعدٌ من الله للمتقين

قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦١﴾ [الزمر: ٦١]، فوعد الله المتقين بنفي العذاب عنهم ظاهراً وباطناً، كما أثبت لهم في آخر السورة النعيمَ ظاهراً وباطناً مِن قوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾ [الزمر: ٧٣] إلى آخرها.

الإخلاص من أعظم أسباب عون الله للعبد

الإخلاص لله تعالى أعظم الأسباب لعون الله للعبد على جميع أموره، ولثبات قلبه، وعدم انزعاجه عند المقلقات والشدائد؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾[محمد: ٧] أي: إذا كان قصدكم في جهاد الأعداء نصرَ الله، وأن تكون كلمتُه هي العليا؛ نَصرَكم اللهُ على أعدائكم، وثبّت أقدامَكم في مواطن اللقاء، فالنصر سببٌ خارجي، وتثبيت الأقدام سببٌ داخلي، وبهذين الأمرين يتم الأمر.

إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه

كثيراً ما يدور على ألسنة الناس: «إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابَه».

دليلُ ذلك في القرآن قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ الآيات [الأنفال: ٤٣، ٤٤].

الأسباب المشاهدة وراءها أسباب أخرى غيبية أقوى منها وقدرة الله لا تعارضها الأسباب

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢].

ما أضعف اليقين في قلوب كثيرٍ من المؤمنين! تجدهم الآن قد استولى عليهم اليأس، وظنوا أن أمر الإفرنج الغربيين الآن سيظهر وسيدوم، وأن أهل الإيمان لا قيام لهم، وأنهم لا بد مغلوبون، وأعداؤهم لا بد غالبون! وسبب هذا: نظرهم إلى الأسباب المدرَكة بالحس، وقَصَروا النظر عليها، ولم يقع في قلوبهم أن وراء الأسباب المشاهدة أسباباً غيبية أقوى منها! وأموراً إلهية لا تعارَض ولا تمانَع، وآفاتٍ تطرأ، وقواتٍ تزول، وضعفاً يزول، وأموراً لا تدخل تحت الحساب!.

فهؤلاء أهل الكتاب، ذوو القوة والشوكة، قد غرتهم أنفسهم، وظنوا أن حصونهم

مانعتهم، وأنهم يمتنعون فيها، ولم يخطر في قلوب المؤمنين خروجُهم منها! حتى جاءهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، واستولى عليهم الضعف والخراب من حيث لا يشعرون، وللكافرين أمثالها.

فالمؤمن حقاً: هو الذي ينظر إلى قدر الله وقضائه، وما له من العزة والقدرة، ويعلم أن هذا لا تعارضه الأسبابُ وإن عظمت، وأن نمو الأسباب ونتاجها متحقق إذا لم يعارضه القَدَر فإذا جاء القدر اضمحل عنده كل شيء، ولكن الأسباب محلُ حكمة الله وأمره؛ فأمر المؤمنين بالاستعداد لعدوهم ظاهراً وباطناً، فإذا فعلوا المأمور ساعدهم المقدور.

حصول التمكين لأهل الإيمان
كان بعد هجرتهم إلى المدينة

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [الحشر: ٩]

لا يمكن أن تكون القَبْليّة في قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِم﴾ راجعة إلى الدار دون الإيمان؛ لأن اللفظ لا يساعد على هذا، لأن الوصف بالجار والمجرور، ولا يصلح إلا أن يعود على المعطوف والمعطوف عليه، فإلى أين يعود، وقد عُلم وتقرر أن المهاجرين قد تقدم إيمانُ كثيرٍ منهم على الأنصار؟.

فالجواب: أن هذا عائد إلى الدار والإيمان على اللفظ المصرح به، وهو التبوء والاستقرار، ومعنى هذا: أن أهل الإيمان لهم حالُ تَبَوُءٍ وتمكينٍ يتمكنون فيه من إقامة دينهم، وقيامه في أنفسهم وفي غيرهم، ولهم حالُ وجودٍ للإيمان منهم دون تمكين، فلم يحصل التمكين إلا بعدما هاجروا إلى المدينة، وصار لهم دارُ إسلام، وأما قبل ذلك فهم وإن كانوا مؤمنين؛ لكنهم في حالة ذلة وقلة، محكومون

مقهورون، خائفون على أنفسهم، وبهذا يتبين المعنى.

أنواع التجارة

التجارات نوعان:

أحدهما: تجارة ربحها الجنات، وأنواع الكرامات، وصنوف اللذات؛ وهي تجارة الإيمان والجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾[الصف: ١٠، ١١] إلى آخر الآيات.

فهؤلاء هم الرابحون حقاً، وهم الذين تحققوا بالإيمان ظاهراً وباطناً، فاجتهدوا في علوم الإيمان ومعارف الإيمان، في أعماله الباطنة – كمحبة الله ورسوله وخشية الله وخوفه ورجائه - وفي أعماله الظاهرة – كالأعمال البدنية والمالية والمركبة منهما - وجاهدوا أنفسهم على هذا، وجاهدوا أعداء الله بالحجة والبرهان، والسيف والسنان.

وثانيهما: تجارة ربحها الخسران وأصناف الحسرات؛ وهي كل تجارة مُشغِلة عن طاعة الله، ومفوتة لتلك التجارة الرابحة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١﴾ [الجمعة:١١] وكم في القرآن من مدح تلك التجارة والحث عليها، والثناء على أهلها! ومِن ذم التجارة الأخرى والزجر عنها والذم لأهلها.

وأهل التجارة الرابحة إذا اشتغلوا بتجارة المعاش لم تكن قاطعةً لهم عن تجارتهم، بل ربما كانت عوناً لهم عليها إذا أحسنوا فيها النية، وسلموا من المكاسب الردية، وأخذوا منها مقدار الحاجة، قال تعالى: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ

ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٧] فلم يقل: إنهم لا يتجرون ولا يبيعون، بل أخبر أنهم لو فعلوا ذلك لم يشغلهم عن المقصود - وهو ذكر الله، وأمهات العبادات - وعطف البيعَ على التجارة - وإن كان البيع داخلاً فيها - لأنه أعظم الأسباب التي تحصل بها التجارة وأنواعُ المكاسب وأبرُكها، والله أعلم.

رحمة الله بأوليائه وأعدائه

سورة مريم - عليها السلام -: قد اشتملت على تفاصيل عظيمة مِن ذكر رحمة الله بأنبيائه وأصفيائه وأحبابه، وما منَّ عليهم به في الدنيا من نِعَم الدين والدنيا، والنعم الظاهرة والباطنة، وما يكرمهم به من الذكر الجميل والثناء الحسن، ووصْفِهم بأحسن أوصافهم، ونَعْتِهم بأشرف نعوتهم، وما يكرمهم به في الآخرة من الثواب والفضل العظيم، وذِكر رحمته أيضاً بأعدائه؛ حيث عاملهم بالحلم والصفح، وتصريف الآيات لعلهم يرجعون مع عظم ما أتوا به من الشرور وعظائم الأمور؛ ولذلك أكثر اللهُ فيها مِن ذكر اسمه الرحمن، الذي هذه آثاره، ومِن ذكر الرحمة؛ فنسأله تعالى أن يدخلنا برحمته في عباده الصالحين.

المؤمنون أحق بالبيت الحرام من المشركين

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ - إلى قوله - ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: ٢٥، ٢٦]. فيه الذم للذين كفروا وصدوا عن المسجد الحرام عبادَه المؤمنين، من وجهين:

- من جهة أنهم اختصوا به ومنعوا غيرَهم، مع أن الناس فيه سواء!
- ومن جهة أن المؤمنين أحق به منهم، وهذه مرتبة ثانية، فأباحوه للأبعدين ومنعوه الأقربين! فإن الله أمر إبراهيمَ عليه السلام أن يطهره للطائفين والقائمين والرُّكّع السجود، فهؤلاء أحق الخلق به؛ لأنهم حزبُ الله وأولياؤه، وما كان المشركون أولياءه: ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

فضل الله ورحمته بعباده

لولا فضلُ الله ورحمتُه لما شرع لعباده الأحكام، ولولا فضلُه ورحمتُه لما فصّلها وبيّنها، ولولا فضلُه ورحمتُه وأن الله توابٌ حكيم لما وضح ما يحتاج إليه العبادُ ويسّره غاية التيسير، ولولا فضلُه ورحمتُه لما شرع أسباب التوبة والمغفرة، ولما تاب على التائبين، ولولا فضلُه ورحمتُه لما زكى منهم من أحد أبداً، ولكن الله يزكي من يشاء، والله سميع عليم، كما فصّل ذلك في صدر سورة النور.

الأمر بالسعي بالأسباب المباحة وتحريمه بالأسباب المحرمة مع لزوم التقوى حتى يحصل الفضل من الله تعالى

قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ﴾ – إلى قوله – ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [النور: ٣٢، ٣٣].

اشتملت هذه الآيات على: الأمر بالسعي بالأسباب المباحة التي يُنال بها الرزق كالنكاح ونحوه، وعلى أن من لم يحصل له سَعة فليلزم تقوى الله تعالى والكفّ عن محارمه، وينتظر فضلَ الله ورزقَه وغناه، وعلى تحريم السعي بالأسباب المحرمة في قوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ والله أعلم.

الأعراف[1]

«الأعرافُ»: موضعٌ بين الجنة والنار، يُشرف على كلٍ منهما، وليس هو موضع

---

(١) قال ابن منظور: الأعراف: جمع عرف، وهو كل عال مرتفع، قال الزجاج: الأعراف: أعالي السور. كذا في «لسان العرب» (٢٠٩١)، وقال ابن جرير في «تفسيره»: «كل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفاً، وإنما قيل لعرف الديك عرفاً؛ لارتفاعه على ما سواه من جسده».

استقرار، إنما هو موضع أناسٍ تساوت حسناتُهم وسيئاتُهم، يمكثون فيه مدةً كما يشاء الله ثم يدخلون الجنة[١]، وفي ذلك حِكَمٌ نبَّه اللهُ تعالى عليها:

منها: أن هذا منزلٌ به يُستدل على كمالِ عدلِ اللهِ وحكمتِه وحمْدِه؛ حيث جعل اللهُ تعالى أسبابَ الثواب والعقاب تتجاذَب وتتعارَض، ويقاوِم بعضُها بعضاً؛ فحسناتهم منعتهم من النار، وسيئاتهم منعتهم الجنة في ذلك الوقت فصاروا وسطاً بين الدارين، وفي برزخٍ بين المحلين، لتظهر الحكمة أولاً ثم يأتيها الفضلُ من ذي الفضل العظيم، الذي أحاط بالخلق من جميع الوجوه فيغمرها، ويكون الحكم له، ففي هذا من تنويع حمده، وتصريفه لعباده؛ ما به يعرف العبادُ كمالَه وكمالَ أسمائِه وصفاتِه، وحكمتَه وعدلَه وفضلَه.

ومنها: أن حالهم من جملة الأدلة على سعة رحمة الله، وأن رحمتَه سبقت غضبَه وغلبَتْه؛ بحيث إذا تعارض موجبُ هذا وموجبُ هذا صار الحكم قطعاً لموجبِ الرحمة على موجبِ الغضب.

ومما يدل على هذا: أنه إذا كان في العبد من موجبِ الرحمة مثقالُ ذرةٍ من إيمان فإنه لا بد أن يصير الحكمُ له، ولو عمل موجبُ الغضب عملَه فالعاقبةُ لموجِبِ

---

(١) **صحيح موقوف**: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣٢٠/٢)، والبيهقي في «البعث والنشور» من طريق الحاكم **بسند صحيح** عن حذيفة.

قلت: ومثل هذا لا يُقال بالرأي أو بالاجتهاد، فهو في **حكم المرفوع**؛ لأنه من الغيبيات التي لا تعلمها إلا من طريق الوحي عن النبي ﷺ.

الرحمة.

ومنها: أن الله إذا أراد أمراً هيّأ أسبابَه، فلما قضى تعالى أنهم سيدخلون الجنة؛ جعل الطمع والرجاء في قلوبهم، والدعاء أن يجيرهم من النار – ولا يجعلهم مع القوم الظالمين – على ألسنتهم، والدعاءُ مع الرجاءِ والطمعِ لا تتخلف [عنه][1] الإجابة.

ومنها: أن «أهل الأعراف» جعلهم الله سبباً يُعرف به ما يصير إليه أهلُ الدارين، وما كان عليه أهلُ الشقاء مِن النكالِ والوبال، وما عليه أهل الجنة من السرور والغبطة، ولهذا ذكر الله توبيخهم لرجالٍ يعرفونهم بسيماهم من أهل النار، إلى غير ذلك من الحِكَم الإلهية فيما يُجريه من الأحكام على البرِيّة.

كمال معرفة الأنبياء بربهم

قول شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٩] **بعد قوله**: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٩].

مِن أعظم الأدلة على كمال معرفتِه بربه، فإنه أولاً: لما بيّن امتناع عودهم في ملة الكفار - بحسب ما كان عليه من مِنّة الله عليه بكراهته الشديدة لملّتهم، واغتباطه بإنجاء الله له منها، وأنهم لو عادوا في ملتهم بعد هذا كان من أعظم الافتراء على الله، الذي يمتنع غاية الامتناع ممن هذا وصفه، وكان هذا الامتناع أثراً

---

(١) وقع في النسخ المطبوعة [عند]، ولعل الصواب ما أثبتناه.

عمّا يسّر الله له من الأسباب – استدرك الأمرَ بعد ذلك، وعلم أن هذا الامتناع بحسب ما وصلت إليه علوم البشر، وأن عِلم الله تعالى محيط بعلومهم، فقد يعلمون شيئاً ويخبرون ما يترتب على علمهم مما يكون بحسب حكمة الله تعالى، ومع ذلك فالله غالب على أمره، وقد يتخلف العلمُ الذي علموه، وأثرُه الذي حكموا به؛ فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾.

ثم قرر ذلك بقوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ثم لجأ إلى أعظم الأسباب الصادرة مِن العبد، التي بها ينال ما عند الله من خير الدنيا والآخرة ودفع شرورهما، وهو: التوكل على ربه، فقال: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ ثم بين ثقته التامة بوعد الله له بالنجاة، هو ومن تبعه، وهلاك من خالفه فقال: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: ٨٩].

العقل الصحيح والفطرة المستقيمة يشهدان باستقامة هذا الدين وكماله وسر العداوة بين النبي وقومه أن الحق الذي جاء به خالف هواهم، فدل ذلك على فساد عقولهم وانحراف فطرتهم

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون:٧٠،٧١] دلت على أن مخالفتهم للرسول لأجل ما جاء به من الحق، وأن عداوتهم الحقيقية للحق لذاته، وأنه السبب في ذلك؛ لأن الحق خالفَ أهواءَهم، وأن أهواءهم فاسدة يمتنع أن يَرِد الحقُّ بما يوافقها؛ لأن الحق هو صلاح السماوات والأرض ومن فيهن، ولو وافق الحقُّ أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن، فدل هذا على أن الحق جاء بما تشهد العقولُ الصحيحة، والفِطرُ المستقيمة بصحته واستقامته، واعتداله وكماله، وأن مَن خالف الحقّ فلِفسادٍ في عقله، وانحرافٍ في فطرته، وأنه اختار الضار على النافع؛ فلهذا قال: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾.

اتباع الشهوات والهوى من طباع النفس الأمارة بالسوء

قوله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ﴾ [مريم: ١٢] ذكر كثيرٌ من المفسرين أن تقديره: (فوهبنا له يحيى، وقلنا يا يحيى إلخ) ولا يُحتاج إلى هذا! فإنه صرّح أولاً

بهِبَته يحيى في قوله: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [مريم: ٧] فلو ذُكر بعد ذلك لكان تكريراً لا يُحتاج إليه.

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩﴾ [مريم: ٥٩] عذاباً مضاعفاً شديداً – اتبعوا الشهوات بمعنى: أرادوها وصارت هي همهم، وانقادوا لها، وصاروا مطيعين لها؛ فلذلك قال: ﴿ٱتَّبَعُواْ﴾ ولم يقل: (تناولوا، وأكلوا) ونحوه لهذا المعنى؛ لأن هذا الذم إنما يتناول متبعي الشهوات، فمهما اشتهت نفوسُهم فعلوه على أنه المقصود المتبوع! ومن المعلوم أن النفس من طبعها أنها أمارة بالسوء، فإذا كان هذا طبعُها عُلم أن ذمهم على اتباع الشهوات يدخل فيه المعاصي كلُّها، فلذلك رتب على هذا العقابَ البليغَ في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩﴾ وهذا بخلاف المؤمن المطيع لله؛ فإنه - وإن تناول الشهوات – فإنه لا يتبعها ولا تصير أكبرَ همه، ولا مبلغ علمه، بل يتناولها على وجه تكون هي تابعة لغيرها لا متبوعة، وخواص المؤمنين يتناولون الشهوات بقصد التوسل بها إلى القربات فتنقلب طاعات! ونظير هذا: أن الذي تناوله الذمُّ هو اتباعُ الهوى، وهو كونه متبوعاً بأن يتخذ العبدُ إلهه هواه، لا مجرد أن يكون للعبد هوى، فكلُّ أَحدٍ له هوى، ولكن المؤمن كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات:٤٠، ٤١].

إقرار التوحيد بأقسامه
وبطلان الشرك عقلاً ونقلاً

قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ

سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥] اشتملت على أصول عظيمة:

١- **على توحيد الربوبية**، وأنه تعالى رب كل شيء وخالقه ورازقه ومدبره.

٢- وعلى توحيد الإلهية والعبادة، وأنه تعالى الإله المعبود، وعلى أن ربوبيته موجبة لعبادته وتوحيده، ولهذا أتى فيه بالفاء الدالة على السبب فقال: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾ أي: فكما أنه ربٌّ كل شيء؛ فليكن هو المعبود حقاً فاعبده.

ومنه الاصطبار لعبادته تعالى، وهو: جهاد النفس وتمرينها، وحملها على عبادة الله تعالى، فيدخل في هذا أعلى أنواع الصبر، وهو: الصبرُ على الواجبات والمستحبات، والصبرُ عن المحرمات والمكروهات، بل يدخل في ذلك الصبر على البليات؛ فإن الصبر عليها - وعدم تسخطها، والرضى عن الله بها – من أعظم العبادات الداخلة في قوله: ﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾.

٣- **واشتملت على أن الله تعالى كامل الأسماء والصفات**، عظيم النعوت جليل القدر، وليس له في ذلك شبيه ولا نظير ولا سَمِي، بل قد تفرد بالكمال المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات، وهذا من أكبر الأدلة على أنه الذي لا تنبغي العبادة الظاهرة والباطنة - القلبية والبدنية والمالية - إلا لوجهه الكريم، خالصة مخلصة، كما خلص له الكمال والعظمة، والكبرياء والمجد والجلال.

ومنها: بطلان الشرك عقلاً ونقلاً، فكيف يليق بالعاقل أن يجعل المخلوقَ الناقصَ – الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً – نداً[1] لمن لا كفء له ولا سمي، ولا مشابه بوجه من الوجوه؟! فهل هذا إلا من السفه

---

(١) واتخاذ الند قسمان:

=

والضلال، والجهل المفرِط، والضرر من كل الوجوه؟! ودلت على أن الشرك قد تقرر في العقل قبحه، وأن التوحيد قد تقرر في العقل حسنه؛ فكما لا سمي لله، فلا أحسن مِن عبادته وإخلاص العمل له، ولا أنفع للعبد من ذلك، ولا أصلح ولا أزكى.

ومن المتقرر شرعاً: أن الإحسان في عبادة الله تعالى – الذي هو سبب كل خيرٍ عاجلٍ وآجل، بل هو سبب لأعلى المراتب وأكمل الثواب - هو كما قال النبي ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١) فكلما حقق العبدُ هذا الأمرَ كان له نصيبٌ وافرٌ من العبادة، بل هو أهم الأمور؛ ولهذا أمر النبيُ ﷺ معاذَ

=

الأول: اتخاذ ند يدعوه، ويخافه ويذبح له، وينذر له، أو يحبه كمحبة الله، وما أشبهه فهذا شرك أكبر، كما روى البخاري (٦٨١١) ومسلم (٨٦) عَنْ عَبْدِ اللهِ ابنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ».

الثاني: كقول الرجل ما شاء الله وشئت، ولولا الله وفلان لكان كذا، والكعبة فهذا شرك أصغر؛ كما في حديث قتيلة امرأة من جهينة أن يهوديًا أتى النبي ﷺ فقال: «إنكم تنددون إنكم تشركون تقولون ما شاء الله وشئت وتقولون والكعبة»، فأمرهم النبي ﷺ: إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: «ورب الكعبة، ويقولوا ما شاء الله ثم شئت». رواه أحمد (١/٣٤٧).

وجاء من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يراجعه الكلام، فقال: ما شاء الله وشئت فقال: «أجعلتني الله ندا، قل: ما شاء الله وحده». رواه أحمد (١/٣٤٧)، وجاء عن حذيفة عند أحمد (٥/٣٩٣).

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بن جبل أن يسأل الله تعالى أن يعينه على ذِكره وشُكره وحُسن عبادتهت[١].

وهذا أمر يَقِل من الخلق من يحقق ويتصف به على وجه الكمال؛ لمشقة ذلك على النفوس، فإذا امتثل العبدُ لأمر ربه بالاصطبار، ولعبادته وحبْسِ النفسِ وتوطينِها على إحسان العبادة - خصوصاً أفضل العبادات وأعظمها وهي الصلاة؛ كما أمر الله بالاصطبار عليها خصوصاً فقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]- استنار قلبه بالإيمان، وأشرق نور العرفان في ضميره، وذاق طعم الإيمان، وباشر حلاوته؛ فانجذب إلى عبادة الله وإخلاص العمل له، وعلم أن هذا هو الفلاح الدائم والربح المتضاعف، الذي لا خسارة فيه؛ فصبّر نفسه قليلاً؛ ليستريح بأعظم اللذات طويلاً، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٤، ٢٤٥)، وأبو داود (١٥٢٢)، والنسائي في «المجتبى» (١٣٠٣)، وفي «الكبرى» (١٢٢٧)، وفي «عمل اليوم والليلة» (١٠٩)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٧٥١)، والحاكم (١/ ٢٧٣) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وابن حبان (٢٠٢٠)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ح١١٠)، والبزار (٢٦٦١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٩٠)، والبيهقي في «الصغرى» (٤٨/١). من طرق: عن حَيْوَة بن شُرَيح، قال: سمعت عقبة بن مسلم التجيبي يقول: حدثني أَبو عبد الرَّحمَن الحبلي، عن الصُّنَابحي عن معاذ بن جبل.

قلت: **وسنده صحيح رجاله ثقات** رجال الصحيح غير عقبة بن مسلم؛ وهو ثقة إمام كما في «تهذيب التهذيب» (٧/ ٢٤٩)، والصُنَابحي؛ هو عبد الرّحمَن بن عُسيلة، المرادي، أَبو عبد الله الصُنَابحي، وأَبو عبد الرّحمَن الحبلي؛ هو عبد الله بن يزيد المَعَافِري، وكلاهما ثقات أجلاء من رجال الصحيح، والحديث صححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٣٦٢)، و«صحيح الجامع» (٧٨٤٦).

فصل

الجزاء من جنس العمل

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ۝٣٩﴾ [المدثر: ٣٨، ٣٩].

أي: كل نفس مرتهنة محبوسة وموثقة بكسبها السيئ، وحبسها في العذاب السيئ؛ وذلك لأن **الجزاء من جنس العمل**، فكما حبس المجرمون ما لديهم لله ولخلقه من الحقوق اللازمة، فلم يؤدوا الصلاة التي هي أكبر العبادات المتضمنة للإخلاص للمعبود، ولا أطعموا المساكين من الحق الذي أوجبه الله لهم في أموالهم، ولا حبسوا نفوسهم على ما شرع، وقيدوها بقيود الدين، بل أطلقوها فيما شاءوا من المرادات الفاسدة، فخاضوا بالباطل مع الخائضين، ولا صدقوا ربهم ورسله مع تواتر الآيات، بل كانوا يكذبون بيوم الدين؛ فلذلك حبسوا في هذا المحبس الفظيع، وأُدخلوا في سقر.

ولما كان أصحاب اليمين قد حبَسوا نفوسهم في الدنيا على شرع الله تصديقاً وعملاً، وأطلقوا ألسنتهم وجوارحهم في طاعة الله ومرضاته؛ أطلق الله إسارهم وفك رهنهم، فلم يكونوا في ذلك اليوم مرتهنين، بل كانوا مُطلَقين فيما اشتهت أنفسهم ولذت عيونهم.

فعملُ العبد في الدنيا إما أن يكون سبباً لارتهانه أو سبباً لخلاصه، بل الأصل أن الإنسان في حبس، وأن عمله سيُرتهن؛ لأنه ظلوم وجهول طبعاً، إلا من خلصه الله من هذا، ومنّ عليه بالصبر وعمل الصالحات، فلهذا جعل الارتهان عامًّا، واستثنى منه

أصحاب اليمين؛ فقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾.

ثمرات القرب من الله

كلما ازداد العبد قرباً من الله - بالإيمان به، والتحقق بحقائقه، ومعرفته بالله، ومحبته والإنابة إليه وإخلاص العمل له - حصل له الخير والسرور، واندفعت عنه أنواع الشرور، وزالت عنه المخاوف، وسهلت عليه صعاب الأمور، وهذا هو المعنى الذي أراد الله بقوله لموسى: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ [النمل:١٠، ١١].

ويدل على هذا قوله: ﴿لَا يَخَافُ لَدَيَّ﴾ ولم يقل: (لا يخاف مني) أي: لا خوف ينال من مننتُ عليه بأكمل الحالات وأشرف المراتب، وهي: الرسالة، ولكل مؤمن نصيب من هذا بحسب ما قام به من اتباع المرسلين، ويدل أيضاً أن المراد هذا المعنى العام الحسن الجليل: أن السياق والقرينة تدل عليه دلالة بينة؛ فإن الخوف الصادر من موسى إنما وقع لما رأى عصاه تهتز كأنها جان؛ فخاف حينئذٍ من تلك الحية بحسب الطبيعة البشرية، فأعلمه الله تعالى أن هذا محل القرب من الله، لا يليق ولا يكون فيه خوف، وإنما فيه الأمن التام؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القصص: ٣١].

ويدل على هذا المعنى ما دل عليه الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾ فإن الاستثناء معيار العموم، والأصل أن يكون من جنس المستثنى منه، فالمعنى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم

مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢] فإن ظلموا أنفسهم ثم رجعوا إلى ربهم وبدلوا سيئاتهم حسنات رجعوا إلى مرتبتهم، وأزال عنهم الغفورُ الرحيمُ موجبَ الظلم والإساءة، والله أعلم.

فائدة:

وهي في الحقيقة تابعة للإيراد السابق في إخبار الله: لا يهدي الظالمين والكافرين ونحوهم، مع أنه وقع منه هداية لمن اتصف بذلك الوصف، وجوابه السابق: وهو أن النفي واقع على من حق عليه أنه مجرم من أهل النار، وأن الهداية الحاصلة لمن لم يكن كذلك، ثم تبين لي في يومي هذا، وتوضح معنى ما زال مشكلاً عليّ، وضّحه اللهُ وله الحمد، وهو حل هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [النمل: ٨٢] وأنها تقرير للآية التي قبلها فإن الله تعالى قال لرسوله مسلياً بعدم إيمان المعاندين، وأن هذا لا يضر الحق شيئاً: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النمل:٨٠، ٨١] فلما بين له أن اجتهاده ﷺ في هداية الضالين إنما ينتفع به ويسمعه سمعَ قبولٍ وانقيادٍ ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

وأما الموتى[1] الذين ليس في قلوبهم أدنى حياة لطلب الحق – فكما أن صوتَك لا

---

(١) عبّر الشيخ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الكفار بالموتى أخذاً من القرآن الكريم حيث يقول تعالى: إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ}، والمقصود أن الكافرين أموات القلوب؛ لأن صوت الحق لا تسمعه قلوبهم ولا تستشعره، فلا ينتفعون بوحي ولا إرشاد فصاروا =

تُسمع به الأموات موتاً حسياً – فصوتك أيضاً في الدعوة والإرشاد لا تُسمع به موتى القلوب، ولا الصم المعرضون المدبرون عن الحق، ولا الذين صار العمى لهم وصفاً، والغيُّ لهم نعتاً، فهؤلاء هم الذين ختم الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، وأولئك هم الغافلون، وهؤلاء هم الذين حق عليهم القول، وإذا حق القول على الأشقياء لم تنفعهم الآيات المسموعة والتذكير، كما لا تنفعهم الآيات التي يصير الإيمان عندها اضطرارياً، وهي الآيات الكبار، التي تكون مقدمة الساعة، فإنها إذا طلعت الشمسُ من مغربها لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، حينئذٍ حق القول على الأشقياء أنهم لا يزالون على شقائهم، فيُخرج لهم دابة من الأرض تكلمهم، وتبيّن المسلم من الكافر، فالقول إذا حق لا يتغير ولا يتبدل، ويحصل اليأس من إيمان الكافرين ولو كانت الآيات أكبر الآيات، فالآية تقرر ما قبلها، وتدل على العلة الجامعة، وهي أن من حق عليه القول لو جاءته كل آية لم يؤمن حتى يرى العذاب الأليم، والله أعلم.

أهل العلم وسائل بين الله وبين عباده بهم يعرف الحلال والحرام

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء: ١٩٧] تدل على أن أهل العلم بهم يُعرف الحق من الباطل، والحلالُ من الحرام، فهم الوسائل بين الله

=

كالأموات تماماً.

وبين عباده، ولهذا استشهد الله بهم على التوحيد وعلى النبوة، وعلى صحة القرآن - كما في هذه الآية – وعلى التوحيد في قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وعلى القرآن قوله: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وتدل هذه الآيات على أن العلم الحقيقي هو ما جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، وما فرّق بين الحق والباطل، وما سوى ذلك – وإن كان صحيحاً – فلا يستحق صاحبُه أن يكون من أهل العلم الذين أمر الله بالرجوع إليهم، وإنما هو من أهل الذكر الذين قال الله فيهم: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣]، حقيق بمن منّ اللهُ عليهم بشيءٍ من العلم أن يكونوا أسرع الناس انقياداً للحق، وأبعد الناس عن الباطل، ولهذا شدد الله الذم بمخالفة هذين الأمرين على أهل العلم؛ كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء:٥٠]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ [النساء: ٤٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [آل عمران: ٢٣].

فائدة عظيمة

بل هي أعظم الفوائد على الإطلاق[١]

الإيمان: هو أعلى الخصال وأشرف المراتب وأكمل المناقب، بل لا يمكن أن تكون فضيلةٌ ولا ثوابٌ إلا بالإيمان وحقوقه؛ ولذلك أثنى الله به على خيار خلقه والمصطفين من عباده فقال في كلٍ من نوح وإبراهيم وموسى وهرون وإلياس وغيرهم من الأنبياء: إنه من عبادنا المؤمنين، فعلل ما حصل لهم من الخيرات وزوال الشرور بإيمانهم.

صفات المؤمنين الناشئة عن إيمانهم

وقد علق الله الفلاح ودخول الجنان على الإيمان في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ [المؤمنون: ١]، ثم ذكر صفاتهم الناشئة عن إيمانهم، ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١]، وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٢٣﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨] والله يحب المؤمنين، إن الله لمع المؤمنين، وغير ذلك من نصوص الكتاب والسنة الدالة على فضله وفضل أهله، وأن الخير كله فيه.

---

(١) من أصل كلام الشيخ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فعلى العبد الذي يريد نجاة نفسه، ويقصد كمالها وفلاحها أن يسعى غاية جهده، ويبذل مقدوره في هذا الوصف، وهو الإيمان علماً ومعرفةً وعملاً وحالاً ووصفاً، وهو كما قال النبي ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»(١).

فوصفه بأقوال اللسان التي يحبها الله ورسوله، وذكر أعلاها بالإحسان إلى عباد الله، أيَّ إحسانٍ كان – حتى إماطة الأذى عن طريقهم - وبأعمال القلوب التي أصلها الحياء، فإن من اتصف بالحياء من الله فقد انصبغ قلبه بمعرفة الله وحبه، وخوفه ورجائه، والتحبب إليه مهما أمكن.

وحقيقة هذا: أن الإيمان اسم جامع للشرائع الظاهرة والباطنة، ولأقوال اللسان وأقوال القلب، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأن من قام بهذه الأمور ونصح فيها وأحسن كان أكمل إيماناً، وأن من نقص معها معرفة وعلماً وعملاً وحالاً صالحاً نقص من إيمانه بقدر ذلك، والناس في الإيمان درجات متفاوتة، فأكملهم من وصل في علوم الإيمان إلى علم اليقين وحق اليقين، وفي أعماله: من وفّى مرتبة الإحسان، وعبدَ الله على وجه الحضور والمراقبة، وفي أحوال الإيمان: من كانت آدابه وأخلاقه صبغة لقلبه، وحالاً غير حائلة، بل إن عرض له ما يشوش عليه إيمانَه بادر بالحال لإزالته، ورجع إلى نعته ووصفه صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة! ولهذا قال النبي ﷺ: «**أكمل**

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»[(١)] فإن لم يتغير إيمانُه عند المعارضات – كالشهوات

---

(١) **صحيح لغيره**: أخرجه أحمد (٢/٢٥٠)، وابن حبان (٤٧٩) من طريق عبد الله بن إدريس، ومن طريقه أبو داود (٤٦٨٢) عن يحي بن سعيد، والترمذي (١١٦٢) من طريق عبدة بن سليمان، وقال: «حسنٌ صحيحٌ»، والبغوي في شرح السنة (٣٤٩٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٤٨) من طريق يعلى بن عبيد، والحاكم في «المستدرك» (١/٣)، من طريق عبد الوهاب، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٢٩١)، وابن أبي شيبة (٢٥٨٢٧) من طريق حفص بن غياث، جميعهم عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قلت: وهو **حديث حسن**؛ لأجل محمد بن عمرو، هو: ابن علقمة بن وقاص الليثي: صدوق له أوهام، وحديثه حسن، روى له أصحاب السنن، والبخاري مقرونا بغيره، ومسلم في المتابعات والشواهد.

ووثقه النسائي وابن المبارك، وابن أبي مريم، وغيرهم، كما في: «الكامل» لابن عدي (٣/٧٨).

وللحديث طريق آخر، أخرجه أحمد (٢/٥٢٧)، وابن أبي شيبة (٢٥٨٣٠، ٣١٠٠٩)، والدَّارِمي (٢٩٥٨)، والحاكم (١/٣)، كلهم من طريق: أبي عبد الرَّحمَن المُقرِئ عبد الله بن يزيد، عن سعيد بن أبي أيوب عن محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قلت: وهذا **سند حسن** كذلك، قال الحاكم: «هذا حديث صحيح لم يخرج في الصحيحين، وهو صحيح على شرط مسلم بن الحجاج، فقد استشهد بأحاديث للقعقاع، عن أبي صالح، عن أبي هريرة ومحمد بن عمرو، وقد احتج بمحمد بن عجلان».

قلت: كذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ، وليس كذلك؛ فمحمد بن عجلان القرشي لم يحتج به مسلم ولا اعتمد عليه، وإنما روى له في المتابعات فقط، ومحمد بن عجلان: وثقه: أحمد، وابن معين، وأبو حاتم، وأبو زرعة، والنسائي، والعجلي، وابن حبان، وحديثه حسن، وباقي رجاله ثقات.

وأخرجه البيهقي في «السنن» (١٠/١٩٢) من طريق سعيد بن أبي مريم عن يحي بن أبي أيوب عن ابن عجلان به وفيه زيادة «**وخياركم خياركم لنسائهم**».

فإذا علمنا هذا فمحمد بن عجلان قد تابع محمد بن عمرو فيرتقي بهذا حديثنا إلى مرتبة

=

والإرادات السيئة وإتيان الأمر مخالفا لمراد النفس – كان هذا المؤمن حقاً، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥].

ولهذا كان من كمال الإيمان أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك[(١)].

=

الصحة إن شاء الله، والله أعلم.

وفي الباب عن عائشة عند أحمد (٦/ ٤٧، ٩٩)، وابن أبي شيبة (٨/٥١٥)، والترمذي (٢٦١٢)، والحاكم (١/٥٣)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٦١٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٦١٥، ٨٣٤٥)، من طريق خالد بن مِهران الحذاء، عن أبي قلابة الجَرْمي عبد الله بن زيد، عن عائشة، وفي سنده انقطاع، قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ، ولا نعرف لأبي قلابة سماعا من عائشة، وقد روى أَبو قلابة، عن عبد الله بن يزيد، رضيع لعائشة، عن عائشة، غير هذا الحديث، وأَبو قلابة اسمه عبد الله بن زيد الجَرْمي»اهـ. وقال أبو حاتم كما في «الجرح والتعديل» (٥/٥٧): «عبد الله بن زيد، أبو قلابة الجرمي، روى عن عائشة، وابن عمر، مرسل»، ونبه الذهبي في التخليص على انقطاعه.

وفي الباب عن جابر عند ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٠٣٢)، وفي «الإيمان» (٤٣)، وابن نصر المَرْوَزي في «تعظيم قدر الصلاة «(٦٤٧)، والبيهقي في «الشعب» (٩٢٦٠)، من طريق هشام عن الحسن عن جابر. وفي سنده انقطاع كذلك، فالحسن لم يسمع من جابر شيئاً، كما قال النسائي وأبو حاتم وأبو زرعة وعلي ويحي وغيرهم من النقاد.

(١) **ضعيف**: يشير المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى ما أخرجه أحمد (٣/ ٤٨٣)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ١٨٨/ ٤١٣)، من طريق ابن لهيعة، عن زبان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه.

قلت: ابن لهيعة ضعيف كما تقدم بيانه، وهو يرويه عن زبان بن فائد: ضعيف كذلك، قال أحمد: أحاديثه مناكير، وقال ابن معين: شيخ ضعيف، وقال ابن حبان: «يتفرد عن

=

ولهذا أيضاً كان إخراج محبوب النفس – وهو المال – لله تعالى دليلاً على الإيمان، كما قال النبي ﷺ: «والصدقة برهان»[(١)].

ولهذا أيضاً كان الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد.

ومن علامات الإيمان: ما ذكره الله بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال: ٢ – ٤].

فوصف المؤمنين بأنهم الذين إذا ذُكِر الله وجلت قلوبهم، أي: خضعت وخشعت وذلت لعظمته، وانكسرت لكبريائه؛ فتركت معاصيه، وخافت عقابه، واطمأنت بذكره ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد: ٢٨]، وإنهم إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، أي: ازدادوا بها علماً وبصيرة، ورغبة في الخير ورهبة من الشر؛ فنما الإيمان في قلوبهم، وكان إيماناً ناشئاً عن أعظم الأدلة والبيانات، كما قالوا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٦﴾ [آل عمران: ١٦]، وقالوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

=

سهل بن معاذ بنسخة كأنها موضوعة لا يحتج به»، وسهل بن معاذ: ضعفه ابن معين وغيره، وقال ابن حبان: «منكر الحديث جدا فلست أدري أوقع التخليط في حديثه منه أو من زبان بن فائد، فإن كان من أحدهما فالأخبار التي رواها أحدهما ساقطة».

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٢٣).

وكما قال مؤمنو الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١٣]، فبحسب إيمان العبد يزدادُ إيمانُه عند تلاوة كتاب الله والحكمة، وهذا أعلى ما يكون من الإيمان، فإنه إيمانٌ عن أكبر البراهين، وإيمانٌ على بصيرة، لا كإيمان ضعفاء المؤمنين، الناشئ عن العادات والتقليد، الذي هو عرضة للعوارض والعوائق! وأما هذا الإيمان فهو إيمان لا تزعزعه الشبهات، ولا تعارضه الخيالات، بل يزداد مع صاحبه مدى الأوقات.

ووصفهم بتحقيق التوكل عليه؛ فأعظم الناس إيماناً أعظمهم توكلاً على الله - خصوصاً التوكل العالي الذي هو: الاعتماد التام على الله في تحصيل محابه ومراضيه، ودفع مساخطه - ولهذا يجعل الله التوكل ملازماً للإيمان في كثير من الآيات، كقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣].

فالمؤمن حقاً تجده قائماً بما أمر الله به من الأسباب، معتمداً على مسببها ومصرفها، واثقاً بربه، لا يقلقه تشوشها، ويحزنه إتيانها على غير مراده، قد هدى الله قلبه فاطمأن إلى ربه ورضي به، وفوّض إليه أمرَه، ومن يؤمن بالله يهد قلبَه، قد تحقق قولَه تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠]، ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ [الحديد: ٢٣] قد رضي بكفاية ربه، وسلّم إليه الأمر، ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

ووصف المؤمنين حقاً في هذه الآية بأنهم الذين يقيمون الصلاة، أي: يقيمونها بقيام مكملاتها، ظاهراً وباطناً، ويؤتون الزكاة؛ فالصلاة فيها الإخلاص للمعبود، والزكاة

فيها الإحسان إلى عباد الله تعالى، فبحسب إيمان العبد يكون قيامُه بالصلاة والزكاة اللتين هما أُم العبادات وأجلُّها، وأعلاها وأعظمها نفعاً وثمرات، وكذلك وصف اللهُ المؤمنين في قوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾ [المؤمنون: ١ – ١٠].

فهذه الأوصاف العظيمة بها يكمل الإيمان ويتحقق، وهو ميزان للخلق، فالمؤمنون المفلحون أهل الفردوس، هم الذين أقاموا الصلاة ظاهراً وباطناً، بحقوقها وخشوعها – الذي هو لبها – وآتوا الزكاة المأمور بها، وحفظوا ألسنتهم من الكلام السيئ والفحش، ومن اللغو والكلام الباطل، ولهذا نبه بالأدنى الذي هو اللغو على ما هو أولى منه، فإخبار الله أنهم عن اللغو - الذي هو الكلام الذي لا منفعة فيه - معرضون؛ يدل على أنهم تركوا الكلام المحرم، وحفظوا فروجهم عن الحرام لله تعالى، وتمام حفظها: حفظ البصر، وعدم قربان الفواحش ومقدماتها، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾ [النور:٣٠].

ووصفهم بمراعاة عهودهم وأماناتهم، وهذا عام للعهود والأمانات التي بينهم وبين ربهم، فإنهم قد عقدوا بينهم وبين ربهم عقدَ الطاعة والسمعَ والالتزام، ولهذا ذكرهم الله بهذا العهد في قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ [المائدة: ٧].

والعهود والأمانات التي بينهم وبين الخلق ألا ينقضوها، وأن يؤدوا الأمانات إلى

أهلها؛ ولهذا ذكر النبي ﷺ أن علامة الإيمان: أن يكون العبد مؤتمناً على الدماء والأموال فقال: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن مَن أمِنه الناسُ على دمائهم وأموالهم**»(١)، وقال: «**لا يؤمن من لا يأمن جارُه بوائقَه**»(٢) ووصف المنافق بضد ذلك، ووصف المؤمنين بالإيمان بجميع الحق الذي نزله الله، وبالرسل الذين أرسلهم الله؛ فقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥] فالمؤمن لما كان وصفه أنه متطلبٌ لرضوان الله، متبعٌ هداه أينما كان، آمنَ بجميع الإلهية والرسل، والتزم الدخول في طاعة الله وطاعة رسوله في كل شيء، وسأل اللهَ أن يغفر له ما قصر فيه، وأن يتجاوز عنه إذا قدّم عليه.

ومن صفات المؤمنين: أنهم يُحكِّمون اللهَ ورسولَه في جميع أمورهم ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٦٢٧)، وأحمد (٨٩١٨)، والنسائي (١٠٤/٨)، والحاكم (١٠/١)، وسنده صحيح رجاله على شرط مسلم غير ابن عجلان تقدم بيان حاله.

قال الترمذي: «حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح»، وقال الحاكم: «قد اتفقا [يعني الشيخان البخاري ومسلم] على إخراج طرف حديث «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» ولم يخرجا هذه الزيادة وهي صحيحة على شرط مسلم».اهـ

قلت: وأصل الحديث في «الصحيحين» عند البخاري (١٠)، ومسلم (٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بدون زيادة «والمؤمن من أمنه الناس...».

(٢) جزء من حديث أخرجه الإمام البخاري (٦٠١٦) من حديث أبي شريح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولفظه: «والله لا يؤمن والله لا يؤمن، والله لا يؤمن. قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه».

وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور: ٦٢]، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٥١]، ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩].

فالمؤمن أخلص دينه لله، واجتهد في الاقتداء برسول الله، ولم يُقدّم على قوله وحُكمه قولَ غيره وحُكمه، بل إذا تبينَتْ له سنةُ رسولِ الله لم يعدل عنها إلى غيرها، وبحسب تحقيقه لهذين الأصلين يتحقق إيمانه ويقوى يقينُه وعرفانُه.

ومن صفات المؤمنين: أنهم متحابون متوالون متراحمون متعاطفون، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ﴾ [التوبة:٧١]، وقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المائدة: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

وكما قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[(١)] وكلما

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وانظر شرحاً ماتعًا لهذا الحديث: «فتاوى الشيخ الألباني» رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ٣٦٠-٣٦١).

ازداد الاتصال بقرابةٍ أو جوارٍ أو حقٍ من الحقوق ازداد هذا المعنى، وتأكد الإحسانُ إليه، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جارَه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفَه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»(١)، وقال: «من غشنا فليس منا»(٢)، و«الدين النصيحة، لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»(٣).

فالمؤمنون يدينون الله بالنصيحة له في عبوديته، ولكتابه في تعلمه وتفهمه والعمل به والدعوة لذلك، ولرسوله في الاجتهاد في متابعته في أقواله وأفعاله وجميع أحواله، ولأئمة المسلمين وعامتهم بإرشادهم إلى مصالحهم الدينية والدنيوية، ومعاونتهم على البر والتقوى، وكفهم عن الإثم والعدوان بحسب القدرة، كما قال تعالى في الآية السابقة في وصفهم أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

ومن صفاتهم الحميدة ومناقبهم السديدة: ما قاله النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرءَ لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر - بعد إذ أنقذه

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٩) من حديث أبي شريح الخزاعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واللفظ له.

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (١٠١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولفظه: «**من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا**».

(٣) أخرجه مسلم (٥٥) من حديث تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الله منه - كما يكره أن يقذف في النار»[١].

فجعل تحقيقَ الإيمان ووجودَ حلاوته بكون المحبة لله ولرسوله، وتقديمها على سائر المَحاب، وجعل المحاب تبعاً لها، فيحب المرءَ لما قام به واتصف به من محاب الله، وما منّ اللهُ به من الأخلاق الفاضلة، فكلما قويت فيه ازدادت محبته له، فتكون محبةُ المؤمن دائرةً مع محبة الله، فيحب اللهَ ورسولَه ويحب من يحبه من الأعمال والأشخاص، وتكون كراهته للكفر المضاد للإيمان أعظمَ من كراهته للنار التي سيقذف فيها. ومثل ذلك قوله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً»[٢].

وقد تقدم قولُ هرقل الذي في «صحيح البخاري»[٣]: «وسألتُك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرتَ أنهم يزيدون، وكذلك أمْرُ الإيمان حتى يتم، وسألتُك: أيرتد أحدٌ سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرتَ: أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشتُه القلوب»، وقال ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورتَه ومن يتبع اللهُ عورتَه يفضحه ولو في جوف بيته»[٤].

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٣٤) من حديث العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) **صحيح**: أخرجه أحمد (٤ / ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٤)، وأبو داود (٤٨٨٠)، والبيهقي في «سننه» (٢٠٩٥٣)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (١٢٠٨)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٦٧) من طريق:

=

=

الأعمش عن سعيد بن عبد الله بن جريج عن أبي برزة الأسلمي فذكره، وفي بعض روايات أحمد وغيره جهالة الراوي عن أبي برزة، فجعله عن رجل من أهل البصرة، ولكن جاء مصرحًا بأنه سعيد بن عبد الله بن جريج في رواية أخرى من طريق الأعمش أيضاً.

وأخرج بنحوه الترمذي (٢٠٣٢)، وابن حبان (٥٧٦٣)، والبغوي (٣٥٢٦)، من طريق الفضل بن موسى عن الحسين بن واقد عن أوفى بن دلهم عن نافع عن ابن عمر، قال: «صعد رسول الله ﷺ المنبر، فنادى بصوت رفيع، فقال: **يا معشر**...الحديث».

قلت: **وسنده قوي**، الحسين بن واقد: وثقه يحي وابن حبان، وقال النسائي وأحمد وأبو زرعة: «ليس به بأس»، وأما أوفى بن دلهم، فجهله أبو حاتم، ولكن وثقه النسائي وابن حبان، ومن عرف حجة على من لم يعرف.

وفي الباب عن ابن عباس عند الطبراني في «الكبير» (١١٤٤٤)، و«الأوسط» (٣٧٩٠)، والعقيلي في «الضعفاء» (٨٣/١) من طريق شيخ الطبراني علي بن المبارك الصنعاني، ثنا زيد بن المبارك، ثنا قدامة بن محمد الأشجعي، عن إسماعيل بن شيبة الطائفي، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس، به.

قلت: وسنده **ضعيف جداً**؛ فيه إسماعيل بن شيبة الطائفي: متروك، قال النسائي: «منكر الحديث»، وقال العقيلي: «أحاديثه مناكير»، وفيه ابن جريج وهو ثقة إلا أنه مدلس، وتدليسه قبيح، قال الدارقطني: «كان لا يدلس إلا فيما سمعه من مجروح»، و وقد عنعن هنا ولم سماعاً كما ترى، وأما شيخ الطبراني؛ فلم أجد أحداً تكلم فيه بجرح ولا تعديل، حتى قال الهيثمي: «لا أعرفه»، ولكن وجدت أن العراقي قد وثقه.

وفي الباب عن بريدة بن الحصيب كما عند الطبراني أيضاً في «الكبير» (١١٥٥)، وفي «الأوسط» (٢٩٥٧) ثنا إبراهيم بن عبد الله بن أيوب المخرمي، ثنا سعيد بن محمد الجرمي، ثنا أبو تميلة يحي بن واضح عن رميح بن هلال الطائي، ثنا عبد الله بن بريدة، عن أبيه، قال: «صلينا الظهر خلف رسول الله ﷺ فلما انفتل من صلاته، أقبل علينا غضبان، فنادى بصوت أسمع العواتق في أجواف الخدور فقال: يا **معشر** ...الحديث».

قال الهيثمي في «المجمع» (٩٤/٨): «فيه رميح بن هلال الطائي قال أبو حاتم: مجهول لم يرو

=

ومن علاماتهم: أن الله قد شرح صدورهم للإسلام؛ فانقادوا لشرائعه طوعاً واختياراً ومحبة، قد اطمأنتْ لذلك نفوسُهم، وصاروا على بيّنةٍ من أمرهم، فهم يمشون بنورهم بين الناس، قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزمر: ٢٢]، فمن يرد اللهُ أن يهديه يشرح صدره للإسلام، وقال ﷺ: «إذا دخل الإيمانُ في القلب اتسع وانشرح» قالوا: وهل لذلك علامة يا رسول الله؟ قال: «نعم!: الإنابة إلى دار

=

عنه غير أبي تميلة يحي بن واضح».

قلت: رميح بن هلال الطائي: **مجهول**، بل قال ابن حبان: «ينفرد عن المشاهير بالمناكير»، إلا أن العلة الكبرى هنا ليست فيه وإنما في إبراهيم بن عبد الله شيخ الطبراني: **ضعيف جداً**، بل ربما **يُتهم بالكذب**، قال الإسماعيلي: «صدوق»، وقال الدارقطني: « ليس بثقة، حدث عن قوم ثقات بأحاديث باطلة»، وقال أبو علي الحافظ: «كان ينكر له لقي الجرمي وأقرانه».

قلت: وكون الراوي يحدث عن الثقات بالبواطيل؛ فإنه أولى بعهدتها منهم، كما أنه متهم في ادعاءه السماع من أناس لا يحتمل السماع منهم، فهو من هذه الناحية متهم بالكذب، وأما تعديل الإسماعيلي له فلا يُلتفت إليه حيث أن جرحه جرح مفسر، فلا يُقدم التعديل المجمل عليه بحال.

وفي الباب عن البراء بن عازب عند أبي يعلى (١٦٧٥)، وابن أبي الدنيا في «الغيبة والنميمة» (٢٨)، والروياني في «مسنده» (٣٥٣) من طرق عن مصعب بن سلام عن حمزة بن حبيب الزيات عن أبي إسحاق عن البراء به.

قلت: وآفته أبو إسحاق السبيعي الهمداني: عمرو بن عبد الله. الكوفي: ثقة إلا أنه مدلس.

وفي الجملة فإن هذا الحديث صحيح؛ لأمرين:

- الأول: صحة طريقه عند الترمذي، وابن حبان.
- الثاني: أنه ورد من طرق كثيرة وبعضها صالح في المتابعات والشواهد، وقد صحح الطبراني هذا الحديث بشواهده، كما صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦١٨٥).

الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله»[(١)]، ولما قال له حارثة:

---

(١) **ضعيف جداً**: أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٣١٤)، من طريق الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي جعفر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الإيمان إذا دخل القلب...** الحديث».

قلت: أبو جعفر هو: عبد الله بن المِسْوَر بن عون بن جعفر: قال فيه أحمد: «أحاديثه موضوعة»، وقال ابن المديني: «كان يضع الحديث»، وقال إسحاق بن راهويه: «كان معروفاً عند أهل العلم بوضع الحديث»، وكذا اتهمه البخاري بالوضع، وقال ابن حبان: « يروي الموضوعات على الأثبات، لا يحتج بخبره». وتركه النسائي والدارقطني، وضعفه أبو زرعة، وقال يحي: «ليس بشيء»، هذا وروايته عن النبي ﷺ مرسلة أصلاً، فهو مع ضعفه أرسله فاجتمع في هذا السند علتين؛ وهما: الانقطاع، وضعف أبو جعفر.

وأخرجه البيهقي في «الزهد» (٩٧٤) من طريق يزيد بن محمد بن يزيد بن سنان عن زيد بن أبي أنيسة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن الحارث عن ابن مسعود، به. **قلت**: وفيه انقطاع؛ حيث أن يزيد بن محمد ابن يزيد بن سنان لم يدرك زيد بن أبي أنيسة ولا سمع منه، وعلى فرض أن في سند البيهقي تصحيف، وأن يزيد رواه عن أبيه عن جده، فإن محمد بن يزيد بن سنان ضعيف، وقد أشار الحافظ العراقي في «المغني» إلى ضعف رواية البيهقي فقال: «ورواه البيهقي في الزهد من رواية عمرو بن مرة، وذكر الرواية، ثم قال: وهذا **مرسل ضعيف**»اهـ.

وجاء من حديث ابن مسعود أيضاً، أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٠٥٥٢)، و الحاكم في «المستدرك» (٣١١/٤)، وابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (١٣١) من طريق: محمد بن جعفر الوركاني، ثني عدي بن الفضل، عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. سكت عنه الحاكم، وتعقبه الذهبي، فقال: «عدي ساقط».

قلت: عدي بن الفضل: تركه أبو حاتم، وأبو زرعة، والدارقطني. وقال ابن معين، والنسائي وغيرهما: «ليس بثقة»، وشيخه المسعودي اختلط، بل قال ابن حبان: «كَانَ المَسْعُودِيّ صَدُوقًا إِلَّا أَنه اخْتَلَط فِي آخر عمره اختلاطا شَدِيدا حَتَّى ذهب عقله وَكَانَ يحدث بِمَا يَجِيئهُ فَحمل فاختلط حَدِيثه الْقَدِيم بحَديثه الْأَخير وَلم يتَمَيَّز فَاسْتحقَّ التّرْك»، **قلت**: ونص بعض الحفاظ على أن

=

=

أحاديثه عن القاسم صحاح.

وأخرجه ابن جرير عن عبد الله بن مسعود من طريقين:

- **الطريق الأول**: أخرجه ابن جرير (٨/٢٧) عن سعيد بن عبد الملك بن واقد الحراني، قال: قال ثنا محمد بن سلمة، عن أبي عبد الرحيم، عن زيد بن أبي أنيسة، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود، به.

قلت: وسنده **ضعيف**؛ فيه علتين: **الأولى**: الحراني: ضعيف، قال أبو حاتم: «يتكلمون فيه، روى أحاديث كذب»، وضعفه الدارقطني، وقال: «لا يحتج به»، **وعلته الثانية**: هي الانقطاع؛ حيث أن أبا عبيدة بن عبد الله بن مسعود: لم يسمع شيئاً من أبيه، وهذا قول العلماء المحققين كأبي حاتم الرازي، والنسائي، والترمذي، وابن سعد، وابن حبان، والبيهقي، وغيرهم.

- **الطريق الثاني**: أخرجه ابن جرير (٨/٣٧) من طريق محبوب بن حسن الهاشمي، عن يونس، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة، عن عبد الله بن مسعود، بنحوه. وسنده **ضعيف**؛ محبوب: لقبٌ لمحمد بنِ الحسن الهاشميِّ البصريِّ. قال ابنُ معين: «ليس به بأس»، لكن قال أبوحاتم: «ليس بقوي»، وضعَّفه النسائيُّ. وهو **معضلٌ** عن ابن مسعود.

وجاء من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/١٣٨٤/٧٨٧٤) من طريق محمد بن حماد الطهراني أنبأ حفص بن عمر العدني ثنا الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس.

قلت: فيه حفص بن عمر العدني وهو ضعيف جداً، بل تركه الدارقطني، وقال العقيلي: «يحدث بالأباطيل»، وأما ما جاء من توثيق محمد بن حماد الطهراني له؛ كما في «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (١/ ٢/ ١٨٢)، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي، فهو توثيق مردود غير معتبر؛ لأن الطهراني لم يكن من النقاد، أصلاً فضلاً عن كونه لا يساوي من جرحوه.

وهذا **السند ضعيف جداً**، حتى قال العلامة أحمد شاكر في «شرحه على ألفية السيوطي» (ص٣٢-٣٣): «أوهى أسانيد اليمانيين: حفص بن عمر بن ميمون العدني عن الحكم ابن أبان العدني عن عكرمة عن ابن عباس».

=

«أصبحتُ مؤمناً حقاً» قال: «وما حقيقة إيمانك»؟ قال: «عزفتُ النفس عن الدنيا؛ فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وإلى أهل الجنة في الجنة يتزاورون فيها، وإلى أهل النار في النار يتعاوون فيها» فقال: «عبد نور الله قلبه؛ فالزم»[(١)].

=

فأنت الآن ترى أن الحديث رغم تعدد طرقه إلا أن كلها ضعيفة شديدة الضعف لا تصلح لتقوية بعضها بعضاً بل على العكس فإنها تزيد بعضها ضعفاً إلى ضعفها، والله تعالى أعلى وأعلم.

(١) **ضعيف**: أخرجه ابن أبي شيبة في« المصنف» (٣٠٤٢٣) من طريق ابن نمير قال: ثنا مالك بن مغول عن زبيد قال: قال رسول الله ﷺ ...فذكره. **قلت**: وهذا **حديث مرسل**، فإن زبيد هو ابن الحارث اليامي: لم يدرك النبي ومات سنة ١٢٤هـ.

وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٣٣٦٧)، وعبد بن حميد (٤٤٥)، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ٣٦٣)، وأخرجه مسدد كما في المطالب (٢٨٧٣) من طريق ابن لهيعة عن خالد بن يزيد السَّكْسَكِيُّ، عن سعيد بن أبي هلال عن محمد بن أبي الجهم عن الحارث بن مالك الأنصاري.

قلت: وهذا **سند ضعيف**؛ لضعف ابن لهيعة كما تقدم بيانه.

أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣١٤)، من طريق معمر، عن صالح بن مسمار، أن رسول الله ﷺ قال لحارث بن مالك...فذكره. وأخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١١/ ١٢٩) ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (١٥٩٢) عن معمر عن صالح بن مسمار وجعفر بن برقان عن رسول الله ﷺ.

قلت: وهذا **معضل**؛ حيث أن صالح بن مسمار وجعفر بن برقان كلاهما من الطبقة السابعة عند الحافظ ابن حجر وهي طبقة كبار أتباع التابعين.

وجاء من حديث أنس بن مالك أخرجه البزار (٦٩٤٨)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٥٩١)، والعقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٤٥٥) من طريق يوسف بن عطية، عن ثابت، عن أنس.

قلت: وهذا **ضعيف جداً**؛ وضعفه البزار قائلاً: «فرد به يوسف وهو لين الحديث»، **قلت**: بل

=

فتحقيق الإيمان علامته: سهولة العبادات، والتلذذ بالمشقات في رضى رب الأرض والسماوات، والتصديق التام بالجزاء، والعمل بمقتضى هذا اليقين، وكذلك قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال»(١)؛ ولهذا مِن أجلِّ علاماتهم أن الإيمان يصل بهم إلى حد اليقين

=

متروك، فقد قال فيه البخاري: «منكر الحديث»، وقال أبو حاتم وأبو زرعة والدارقطني: «ضعيف الحديث»، وتركه النسائي والدولابي.

هذا وقد رويت هذه القصة أيضا مع عوف بن مالك، أخرجه ابن أبي شيبة في «الإيمان» (١١٤)، وفي «المصنف» (٣٢٤٤٣)، من طريق يزيد بن هارون، أنا أبو معشر، عن محمد صالح الأنصاري: أن رسول الله ﷺ لقي عوف بن مالك فقال: «كيف أصبحت يا عوف بن مالك؟» قال: أصبحت مؤمنا حقا... الحديث.

قال العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تحقيقه على الإيمان لابن أبي شيبة: «ضعيف مرسل؛ فإن محمد بن صالح الأنصاري هو التمار المدني من أتباع التابعين وهو صدوق يخطى. كما في «التقريب» وأبو معشر اسمه نجيح بن عبد الرحمن وهو ضعيف».

(١) **حسن عن الحسن**: أخرجه ابن أبي شيبة في «الإيمان» (٩٣)، وأحمد بن حنبل في «الزهد» (١٤٨٣) من طريق جعفر بن سليمان، عن زكريا، عن الحسن. وفي سنده زكريا بن حكيم: هالك كما قال ابن المديني، وقال النسائي وابن معين: «ليس بثقة»، وقال ابن حبان: «يروي عن الأثبات ما لا يشبه أحاديثهم، حتى يسبق إلى القلب أنه المتعمد».

وأخرجه ابن بطة في «الإنابة الكبرى» (١٠٩٣) عن أبي بكر أحمد بن سليمان العباداني قال: حدثنا محمد بن عبد الملك الدقيقي، قال: حدثنا عبيد الله بن موسى، قال: أخبرنا أبو بشر الحلبي، عن الحسن. وهذا **سند حسن**؛ أحمد بن سليمان العباداني: قال الخطيب البغدادي: «رأيت أصحابنا يغمزونه بلا حجة فان أحاديثه كلها مستقيمة خلا حديث واحد خلط في إسناده»، وأبو بشر الحلبي، قال أبو حاتم: «صدوق».

وقد روي مرفوعاً من طرق كثيرة كلها متهالكة، كما بيّنه العلامة الألباني في «الضعيفة»

=

والصديقين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩] ولما ذكر النبيُّ ﷺ ارتفاعَ غُرَف الجنة وعلوَّها العظيم قالوا: «يا رسول الله، تلك الأنبياء، لا يبلغها غيرهم»! فقال: «بلى، والذي نفسي بيده! رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»(١) ولهذا كانت الصدّيقيةُ التي أثنى بها على خواص خلقه هي: تكميل مراتب الإيمان علماً وعملاً ودعوة.

وكما أن مِن تحقيق الإيمان أن تكون الأعمال الصالحة مصدقة له؛ فمِن تحقيقه أيضاً: أن يكون المؤمن متنزهاً عن الإثم والفسوق، وأنواع المعاصي الداخلة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة: ٢٧٨].

ومن موجبات الإيمان: صرفُ الأموال في مصارفها الشرعية، ووضعُها مواضعَها، وإقامة الحدود التي حد اللهُ ورسولُه، قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] وقال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النور: ٢]، وقال: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [النور: ٣] إلى غير ذلك من النصوص في الكتاب والسنة الدالةِ على وصف

=

(١٠٩٨).

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٣٨٣١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المؤمنين، وأن العبد لا يستحق حقيقة الإيمان حتى يتصف بها.

وفي الجملة: فكلما قال تعالى: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا أو: اتركوا كذا؛ كان امتثالُ ذلك الأمر، واجتنابُ ذلك النهي من مقتضيات الإيمان وموجباته، الذي لا يتم إلا بها، فبهذا ونحوه تعرف حقيقةَ الإيمان الذي جعله الله عنوانَ السعادة، ومادةَ الفلاح، وسببَ الفوز بكل مطلوب، والنجاة من كل مرهوب؛ فنسأله تعالى إيماناً كاملاً يهدي به قلوبنا إلى معرفته ومحبته، والإنابة إليه في كل أمر وألسنَتَنا إلى ذكره والثناء عليه، وجوارحَنا إلى طاعته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ [يونس: ٩].

ومِن صفاتهم الجليلة: أن الله يهديهم إلى الحق في المواطن المشتبهات، وللصواب في محالِّ المتاهات التي لا تحتملها عقولُ كثيرٍ من الناس، ويزدادون إيماناً ويقيناً في المواضع التي يزداد بها غيرُهم رَيباً وشكاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ﴾ [البقرة: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ – إلى أن قال – ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾ [الحج: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المدثر:٣١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: ٧] فما معهم من الإيمان واليقين يهديهم إلى الحقائق وأقوم الطرائق وأرشد الأمور وأصلح الأحوال، ولهذا كان القرآن تذكرة ورحمة

وبشرى للمؤمنين، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨﴾ [المؤمنون: ٥٧، ٥٨] إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون، فلما مشوا بنور إيمانهم في ظلمات الجهالات والشرور وتولاهم مولاهم – ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٨﴾ – مشوا في نورهم يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [الحديد: ١٢]، ولما كانت تجارتهم أجل التجارات؛ كان ربحها النعيم المقيم في غرف الجنان: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٠، ١١].

ومن صفاتهم: أن الله ينزل في قلوبهم السكينة والطمأنينة في مواضع الحرج والقلق، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

من دعا إلى حق أو أنكر منكر وجب معاونته مع الأخذ بأسباب النصرة

كل من قام بحق أو دعا إليه، أو سعى في إنكار منكرٍ وإبطال باطلٍ وجبت معاونته ومساعدته على ذلك، وهو داخل في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤]، ودلت هذه الآية ونحوها باللزوم على الأمر بالسعي بالأسباب التي تتم بها نصرة الحق؛ كالتعلم والتعليم للعلوم النافعة ونحوها.

الإخلاص لله والرجوع إليه من أهم أسباب الهداية

الإخلاص والالتجاء إلى الله على الدوام والرجوع إليه في كل أمر؛ هو السبب الأعظم في حصول الهداية إلى الصراط المستقيم - علماً وعملاً -؛ قال الله تعالى عن الخليل عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ [الصافات: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥] قد استجاب الله له هذا الدعاء ووقع الأمر.

الأمر السماوي ليس في مقدور المخلوقات ولا استطاعتهم إنما هو منحة من الله يهبها من يشاء من عباده

كذلك فإنه مهما تنقلتْ بالخلق الأحوال، وأُعطوا الأسباب العظيمة – من التمكين في الأرض والاقتدار على مصالحها – فلا بلغوا ولا يبلغون ما بلغه سليمان عليه السلام! مِن الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر، وتجري بأمره رخاء حيث أصاب، ومِن تسخير الشياطين كلَّ بناء وغواص، وآخرين مقرنين في الأصفاد، ومن تسهيل الأسباب التي تدرك فيها المطالب ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

[النمل: ٣٨ – ٤٠]، ومن تسخير الطير والوحوش، وتعلم منطقها، مما هو من أعظم الأدلة على أن هذا أمر سماوي، ليس في قدر المخلوقات استطاعته.

أفضل الشكر الإكثار من الذكر

في أمر الله تعالى لزكريا بالذكر بالعشي والأبكار، بعد البشارة له بيحيى عليهما السلام[١]، وفي أمر زكريا لقومه بتسبيح الله بكرةً وعشياً تنبيهٌ على شكر الله تعالى على النعم المتجددة، لا سيما النعم التي يترتب عليها خيرٌ كثيرٌ، ومصالح متعددة، وأنه ينبغي للعبد كلما أحدث اللهُ له نعمةً أحدث لذلك شكراً، وأن أفضل أنواع الشكر: الإكثارُ مِن ذكر الله، وتسبيحِه وتقديسه والثناءِ عليه.

نعمة الدين ونعمة الدنيا
تحصل بهما السعادة العاجلة والآجلة

كمالُ العبد في تمام النعمتين: نعمةَ الدين، ونعمةَ الدنيا، فبهما تحصل السعادة العاجلة والآجلة.

فنعمة الدين: بالعلم الهادي إلى الصراط المستقيم، وبتقوى الله التي هي امتثال

---

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١﴾ [آل عمران ٤١].

أمره واجتناب نهيه.

ونعمة الدنيا: بأن ينقطع العبد عن رجاء المخلوقين والافتقار إليهم، ويرزقه الله العفةَ عن القبائح، ثم يغنيه بالحياة الطيبة، والخير الذي يكون عوناً له على عبادة ربه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمد: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ [النور: ٣٣].

وقد تضمن هذه الأمورَ الأربعةَ الدعاءُ الذي ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: «اللَّهُمَّ إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»[(١)].

من أحب أمر الله وكره ما نهى عنه حفظه الله من كل سوء

إذا صدق العبدُ في حبه ما أمَرَ اللهُ به، وكراهته لما نهى اللهُ عنه، وبذل جهدَه في فعل المحبوب وترك المكروه، واستعان بالله وتضرع إليه في التوفيق لفعل ما يحبه، والحفظ مما يكرهه؛ فإن اللهَ أكرمُ الأكرمين، ولا يخيِّب عبداً هذا شأنُه، ولو توالت وتكاثرت الأسباب المعارضة؛ فإن هذا السبب المجتمع من ثلاثة هذه الأشياء لا يتخلف عنه عند مسببه، وإنما يأتي العبدَ النقصُ من إخلاله بها أو بأحدها؛ ولهذا لما اجتهد يوسف الصديق عليه السلام، في السلامة من شر مراودة امرأة العزيز ومن

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أعانها على مرادها، وصدق في حبه وإيثاره طاعةَ الله على طاعة النفس، وتضرع إلى الله تعالى وتوكل عليه في حفظه وصيانته استعصم وحفظه الله، وصرف عنه السوء والفحشاء.

فقال عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: ٣٣] فاختار السجن المتضمن للعقوبة والإهانة على مراد النفس الدني، المثمر للخسران الدائم، وتملَّقَ إلى الله وتضرع في صرف كيدهن واجتهادهن في فتنته، وفوّض الأمرَ إلى ربه، وعلم أن الله إن وكَلَه إلى نفسه، ولم يصرف عنه كيدهن، فلا بد أن يصبو إليهن ويفعل أفعال الجاهلين؛ لأن هذا طبع النفس، إلا من رحم الله.

إبطال زعم أن لله ولدًا
تعالى الله عما يقولون علوا كبيرًا

قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ [الكهف: ٥] أبطلَ به قولَ مَن زعم أن لله ولداً من ثلاثة أوجه، بل من أربعة:

أحدها: أنه قول بلا علم؛ ومن المعلوم أن القول بلا علم من أعظم المختلقات، وأن ذلك من الجهالات والضلالات، خصوصاً في أعظم المسائل وأهمها وهي: مسألة التوحيد، وتفرد الباري جل جلاله بالكمال، وتنزهه عن كل ما لا يليق بجلاله - من أنواع النقائص المنافية لكمال الربوبية وعظمة الإلهية - فنفى عنهم العلم، ونفى عنهم

التقليد لأهل العلم؛ فلم يقولوا شيئاً يعلمونه، ولا اقتدوا بالعالمين، بل هم وآباؤهم في ضلال مبين.

والوجه الثاني: قوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: عظمتْ وزادت في الشناعة إلى حدٍ يُستعجب كيف نطقوا به، وكيف خرجت هذه الكلمة الشنيعة من أفواههم! التي: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١﴾ [مريم:٩١]، وإنما كانت شنيعة جداً لأنها متضمنة لشتم رب العالمين وسبه، كما قال في الحديث الصحيح: «شتمني[(١)] ابن آدم ولم يكن له ذلك، وكذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك: أما شتمه إياي فقوله: إن لي ولداً وأنا الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد ...»[(٢)] إلخ، فأي شتم أعظم من هذا الشتم! الذي مضمونه حاجة رب العالمين إلى اتخاذ الصاحبة والولد! ومنافاة وحدانيته وتفرده بالكمال!.

الوجه الثالث قوله: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ فسجّلَ على أن قولهم هذا هو الكذب الصراح والإفك المبين، وتأمل كيف ارتقى في إبطاله من وجه يبطله ويفسده إلى وجهٍ آخرَ يزيدُ في إبطاله، إلى وجهٍ ثالثٍ لا يبقى ريب ولا شك لكل ذي بصيرة في إبطاله، فنفى العلم بوجوهه، وشنع ما قالوه وعظمه، وأخبر عن مرتبته - وأنه قول – في

---

(١) الشتم: قبيح الكلام، وليس فيه قذف، والشتم: السب. «اللسان» (٢١٩٤). والمراد به الوصف بما يقتضي النقص.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٩٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أخس المراتب وأسفلها وهو: الكذب والافتراء.

والوجه الرابع: ما يحصل به من مجموع هذه الأوجه، فإن الهيئة الاجتماعية يحصل منها أثرٌ ودلالةٌ غيرَ ما حصل لكل وجهٍ على انفراده، ويحصل بها مِن تصريح الدلالة ما يتضح به الحق وينجلي، وهكذا كل مسألة عليها عدة أدلة، فإنه يحصل بكل دليل على انفراده علم، ثم يحصل بالدليل الآخر علم آخر، ثم يحصل باجتماعهما علم آخر، وهكذا كلما كثرت وتعددت؛ وبهذا ونحوه يعلم أن المسائل الكبار كمسألة التوحيد وفروعه ومسألة المعاد ومسألة النبوة أن من تتبع أدلتها، واستقرأ براهينها؛ فإنه يحصل له من حق اليقين، ومن العلم الكامل فيها ما لا يحصل في غيرها من المسائل التي هي دونها، وهذا من أجل قواعد الإيمان، وأفضل العلوم النافعة، وأعظم ما يقرب إلى رب العالمين.

فصل

مبحث جليل في الإيمان بالغيب

سؤال: ما هو الغيب الذي أثنى الله على المؤمنين به، وأخبر عن سعادتهم وفلاحهم واستحقاقهم النعيم المقيم؟ فلعل العبد يعرفه ويتعرف محالَّه ومواضِعه؛ فيجتهد في تحقيق الإيمان ليكون من المفلحين. فإن أكثر الناس – بل أكثر المؤمنين – ليس عندهم في هذا الباب إلا أمورٌ مجملة، وألفاظٌ غير محققة، وهذا نفعه دون نفع التنويع والتفصيل والتوضيح والتبيين بكثير كثير؛ فأفتونا بحسب قدرتكم واستطاعتكم؛ فإنا لا نطلب منكم شططاً، وإلا فقد تقرر أن هذه المسألة لا يتمكن خواص الخلق

من إيفاء حقها وبيان أمرها، فأفتونا مأجورين؟

الجواب: وبالله أستعين، وإليه أضرع في الهداية فيها وفي غيرها: الغيب هو خلاف الشهادة، ولهذا تقسم الأشياء قسمين: غيبية ومحسوسة.

فالأمور المحسوسة المشاهدة: لم يُعلّق الشارعُ عليها حكماً من أحكام الإيمان، الذي يفرق به بين أهل السعادة وغيرهم، وذلك كالسماء والأرض وما فيها من المخلوقات المشاهدة، والطبائع المعلومة المعقولة؛ إنما يذكر الله تعالى من هذا النوع الأدلةَ والبراهينَ على ما أخبر به وأخبرت به رسله.

القسم الثاني: وهو الغيب الذي أمر بالإيمان به، ومدح المؤمنين به في غير موضع من كتابه.

وضابط هذا القسم: أنه كل ما أخبر الله به، وأخبرت به رسله على وجهٍ يدعو الناسَ إلى تصديقه والإيمان به، وذلك أنواع كثيرة: أجلها وأعلاها وأفضلها وأنفعها وأيسرها: ما أخبر به في كتبه، وأخبرت به رسلُه من أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا، ونعوته الجليلة الجميلة، وأفعاله الحميدة، وفي الكتاب والسنة من هذا النوع شيء كثير جداً بحسب الحاجة إليه؛ فإنه لا أعظم حاجة وضرورة من معرفة النفوس بربها ومليكها، الذي لا غنى لها عنه طرفة عين، ولا صلاح لها ولا زكاء إلا بمعرفته وعبادته، وكلما كان العبد أعرف بأسماء ربه، وما يستحقه من صفات الكمال، وما يتنزه عنه مما يضاد ذلك؛ كان أعظم إيماناً بالغيب، واستحق من الثناء والمدح بحسب معرفته، وموضعُ هذا: تدبر أسمائه الحسنى التي وصف وسمى بها نفسه في كتابه وعلى لسان رسله، فيتأملها العبد اسماً اسماً، ويعرف معنى ذلك، وأن له تعالى في ذلك الاسم أكمله وأعظمه، وأن هذا الكمال والعظمة ليس له منتهى، ويعرف أن كل ما ناقض

هذا الكمال بوجه من الوجوه فإن الله تعالى منزه مقدس عنه، لما كان هذا النوع هو أصل الإيمان بالغيب وأعظمه وأجله؛ قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحد، من أحصاها دخل الجنة»[١] أي ضبط ألفاظها، وأحصى معانيها، وتعقلها في قلبه، وتعبد الله بها، وتقرب بمعرفتها إلى رب العالمين.

فينبغي للمؤمن الناصح لنفسه أن يبذل ما استطاع من مقدوره في معرفة أسماء الله وصفاته وتقديسه، ويجعل هذه المسألة أهم المسائل عنده، وأولاها بالإيثار، وأحقها بالتحقيق؛ ليفوز من الخير بأوفر نصيب، ولهذا لما سأل النبي ﷺ الرجل الأنصاري عن سبب ملازمته لقراءة سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١] في صلاته فقال: «لأنها صفة الرحمن، فأحب أن أقرأ بها» فقال: «حبك إياها أدخلك الجنة» متفق عليه[٢].

فثبت أن حبَّ العبدِ لصفات الرحمن، وملازمة تذكرها، واستحضار ما دلت عليه من المعاني الجليلة، والتفهم في معانيها؛ من أسباب دخول الجنة، وطريق ذلك: أن يجمع العبدُ الأسماءَ الحسنى الواردة في القرآن، وهي قريب من ثمانين اسماً - وفي السُّنة زيادة على ذلك - فيتدبرها، ويعطي كل اسمٍ منها عمومَ ذلك المعنى وكماله وأكمله.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٧٥) ومسلم (٨١٣) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

تدبر اسم الله[١]

فإذا تدبر اسمَ الله عرف أن «الله» تعالى له جميع معاني الإلهية، وهي كمال الصفات والانفراد بها، وعدم الشريك في الأفعال؛ لأن المألوه إنما يُؤلَه لما قام به من صفات الكمال، فيحب ويخضع له لأجلها، والباري جل جلاله لا يفوته من صفات الكمال شيء بوجه من الوجوه، أو يُؤلَه ويُعبد لأجل نفعه وتوليه ونصره، فيجلب النفع لمن عبده، ويدفع عنه الضرر، ومن المعلوم أن الله تعالى هو المالك لذلك كله، وأن أحداً من الخلق لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، فإذا تقرر عنده أن اللهَ وحده المألوه؛ أوجب له أن يعلق بربه حبَّه وخوفَه ورجاءَه، وأناب إليه في كل أموره، وقطع الالتفات إلى غيره من المخلوقين، ممن ليس له من نفسه كمالٌ ولا له فعال، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

تدبر اسم العليم

ويتدبر - مثلاً - اسمَ العليم، فيعلم أن العلم كله بجميع وجوهه واعتباراته لله تعالى، فيعلم تعالى الأمور المتقدمة والأمور المتأخرة، أزلاً وأبداً، ويعلم جليلَ الأمور وحقيرَها، وصغيرَها وكبيرها، ويعلم تعالى ظواهرَ الأشياء وبواطنَها، غيبَها وشهادتَها، ما

---

(١) زدنا هذه العناوين كذلك، للتوضيح.

يعلم الخلقُ منها وما لا يعلمون؛ ويعلم تعالى الواجبات والمستحيلات [و][1] الجائزات، ويعلم تعالى ما تحت الأرض السفلى كما يعلم ما فوق السماوات العلى، ويعلم تعالى جزئيات الأمور وخبايا الصدور، وخفايا ما وقع ويقع في أرجاء العالم وأنحاء ملكه، فهو الذي أحاط علمُه بجميع الأشياء في كل الأوقات، ولا يعرِض تعالى لعلمه خفاءٌ ولا نسيان، ويتلو هذه الآيات المقرّرةِ له: كقوله في غير موضع ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٢٨٢﴾ [الأنفال: ٤٣].

﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤﴾ [التغابن: ٤].

﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧﴾ [طه: ٧]، ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ١٠﴾ [الرعد:١٠]، ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠﴾ [الحج: ٧٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦﴾ [آل عمران: ٥، ٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ٣٤﴾ [لقمان: ٣٤] ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ

(١) في الأصل المطبوع [أو] ولعل الصواب ما أثبتناه.

إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الحج: ٦٣]، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبإ: ٢].

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان:٢٧]، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣٤] ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عمران: ١٥٣] ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة:٧] ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وغير ذلك من النصوص الكثيرة الدالة على هذا المعنى، فإنَّ تدبُّر بعض ذلك يكفي المؤمنَ البصيرَ معرفةً بإحاطة علم الله تعالى، وكمال عظمته، وجليل قدره، وأنه الرب العظيم المالك الكريم.

تدبر اسم الرحمن

وكذلك: يتدبر اسمَه الرحمن، وأنه تعالى واسعُ الرحمة، له كمالُ الرحمة، ورحمتُه قد ملأتِ العالم العلوي والسفلي وجميعَ المخلوقات، وشملت الدنيا والآخرة.

ويتدبر الآيات الدالة على هذا المعنى كقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٣] ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الروم: ٥٠]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ [لقمان: ٢٠]، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ [النحل: ١٨].

ويتلو سورة النحل الدالة على أصول النعم وفروعها، التي هي نفحةٌ وأثرٌ من آثار رحمة الله؛ ولهذا قال في آخرها: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١﴾ [النحل:٨١].

ثم تدبّر «سورة الرحمن» من أولها إلى آخرها؛ فإنها عبارة عن شرح وتفصيل لرحمة الله تعالى، فكل ما فيها من ضروب المعاني وتصاريف الألوان من رحمة الرحمن، ولهذا اختتمها في ذكر ما أعد الله للطائعين في الجنة من النعيم المقيم الكامل، الذي هو أثر من رحمته تعالى؛ ولهذا يسمي اللهُ الجنةَ الرحمة كقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾ [آل عمران: ١٠٧]، وفي الحديث: «أن الله قال للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي»[(١)]، وقال: ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾، وفي الحديث الصحيح «لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها»[(٢)]، وفي الحديث الآخر: «إن الله كتب كتاباً عنده فوق عرشه أن رحمتي سبقت غضبي»[(٣)]

وفي الجملة: فالله خلق الخلق برحمته، وأرسل إليهم الرسل برحمته، وأمرهم

---

(١) جزء من حديث **متفق عليه**؛ أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ونهاهم وشرع لهم الشرائع برحمته، وأسبغ عليهم النعمة الظاهرة والباطنة برحمته، ودبرهم أنواع التدبير وصرفهم بأنواع التصريف برحمته، وملأ الدنيا والآخرة من رحمته، فلا طابت الأمور ولا تيسرت الأشياء ولا حصلت المقاصد وأنواع المطالب إلا برحمته، ورحمته فوق ذلك وأجل وأعلى وللمحسنين المتقين من رحمته النصيب الوافر والخير المتكاثر: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦].

وهكذا يتدبر العبدُ صفات ربه وآثارها وأحكامها؛ حتى ينصبغ قلبُه بمعرفته، ويستنير فؤادُه ويمتلئ من عظمة خالقه وشواهد صفاته، ولنقتصر على هذا التنبيه اللطيف على هذه الأسماء الثلاثة؛ ليُحتَذى في باقيها على هذا الحذو، ويتدبر – مثلاً – آيةَ الكرسي، وأولَ سورة آل عمران، وأولَ سورة الحديد وغافر، وآخرَ سورة الحشر، وسورةَ الإخلاص ونحوها من الآيات المشتملة على هذا العلم العظيم، وما يتأيد بها من الأحاديث النبوية؛ لينال حظاً جزيلاً من الإيمان بالغيب، وليكون من الذين يخشون ربهم بالغيب.

ومن الإيمان بالغيب: الإيمان بجميع رسل الله الذين أرسلهم على وجه الإجمال والتفصيل لأشخاصهم ولدعوتهم وشرعهم، وكذلك الإيمان بجميع الكتب التي أنزلها الله هداية للعباد على ما اجتباهم برسالته، ولهذا سمى الله الوحي الذي أنزله على رسوله غيباً، فقال: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [التكوير: ٢٤]، ويذكر تعالى من أدلة رسالة محمد ﷺ الأخبار بوقائع الأنبياء المتقدمين وما جرى لهم فيقول: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ﴾ [هود: ٤٩]، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص:٤٤]، وما أشبه هذا مما فيه التبيان

لصحة رسالة محمد ﷺ حيث أخبر بهذه الغيوب، فتمام الإيمان بالغيب: أن يؤمن العبدُ بجميع رسل الله ويعرف من صفاتهم ومن دعوتهم ما يحقق به هذا الأمر.

وكذلك: يؤمن بجميع الكتب، خصوصاً هذا القرآن العظيم، الذي كلف العبد بالإيمان به إجمالاً وتفصيلاً.

وكيفية الإيمان على وجهِ الإجمالِ والتفصيل[(١)]:

١- أن يؤمن ويصدِّق بأنه كلامُ الله، أنزله مع جبريل عليه السلام على قلب محمد ﷺ بهذا اللسان العربي؛ لينذر الخلق ويهدي إلى الحق في جميع المطالب.

٢- ويلتزم العبد التزاماً لا تردد فيه تصديقَ إخباراته كلِّها، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وإحلال حلاله وتحريم حرامه.

٣- ثم يُحقق هذا الأصلَ بتفاصيله، فيتفهّم ما دلت عليه أخبارُه، ويجعلها عقيدة لقلبه راسخة، لا تزلزلها الشُبَه، ولا تُغيّرها العَوارض.

٤- ويجتهد في كل ما أُمِر به من أعمال القلوب والجوارح أن يقوم به على وجه الكمال والتكميل، علماً وعملاً وحالاً؛ وما لا يقدر عليه.

٥- نوي فعلَه لو قَدَر عليه. وكذلك النواهي: يأخذ نفسَه في كل ما نهي عنه أن لا يقربه ولا يحوم حوله؛ امتثالاً لأمر الله، ورجاء لثوابه.

فبحسب قيام العبد بهذا يكون إيمانه بالغيب، فمستقلٌ ومستكثرٌ ومتوسطٌ،

---

(١) من أصل كلام الشيخ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ويدخل في هذا النوع: الإيمان بأخباره بما كان من الأمور الماضية، وما يكون من الأمور المستقبلة.

ومن أنواع الإيمان بالغيب: الإيمان باليوم الآخر، وبما وعد اللهُ العبادَ من الجزاء، فدخل في هذا: الإيمانُ بجميع ما يكون بعد الموت من فتنة القبر وأحواله، ومِن صفات يوم القيامة وأهوالِه، ومن صفات النار وأهلها، وما أعد اللهُ لهم فيها، ومن صفات الجنة وأهلها، وما أعد الله فيها لأهلها، فيفهمها فهماً صحيحاً مأخوذاً من الكتاب ودلالته البينة، ومن السنة الصحيحة ودلالتها الظاهرة، فبحسب ما يصل إلى العبد من نصوص الكتاب والسنة في هذا الباب، وفهمها على وجهها؛ يكون إيمان العبد بالغيب.

وإذا استقر الإيمان بالوعد والوعيد في قلب العبد، وحصل فيه من ذلك تفاصيلُ كثيرة؛ أوجب له الرغبة في فعل ما يقرّبه إلى ثواب الله، والرهبة من الأسباب الموجبة للإهانة، وعلم أن الله تعالى قائمٌ على كل نفس بما عملت من خير وشر، وأنه واسع الفضل، كامل العدل، قال تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١﴾ [مريم:٦١]، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٩﴾ [آل عمران: ٩].

ومن الإيمان بالغيب: الإيمان بالملائكة الكرام، الذين جعلهم الله عباداً مُكْرَمين، ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وأنهم ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: ٦]، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وأنه تعالى جعلهم يدبرون بأمره وإذنه أمورَ الدنيا والآخرة، فهم أكثرُ جنود الله، وهم رسله في أحكامه الدينية وأحكامه القدرية، وأن الله جعل للعبد منهم مُعَقِّباتٍ

يحفظونه من أمر الله، ويحفظون عليه أعماله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨]، ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ٩ – ١٢] ولهم صفاتٌ وأفعالٌ مذكورة في الكتاب والسنة لا يتم الإيمانُ بالغيب إلا بالإيمان بها؛ **فرجع الإيمان بالغيب إلى أصول الإيمان الستة**: بالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، على هذا الوجه الذي ذكرنا، والأصل الذي نبهنا أدنى تنبيه عليه، فمن حقق الإيمان بذلك كله كان من المؤمنين بالغيب حقيقة، المتقين المفلحين.

مبحث دقيق في الخشوع وعلاماته وثناء الله على أهله

فائدة: ما هو الخشوع الذي أمر الله به، ومدح أهلَه وذم من قسا قلبه فلم يخشع، فما حقيقة ذلك؟ وما علامته ودلالته؟

قلت: قد مدح الله الخشوع عموماً في جميع الأوقات والحالات والعبادات، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [هود: ٢٣].

ومدح الخشوع خصوصاً في الصلاة، مثل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾.

فخشوعُ القلب عنوانُ الإيمان وعلامة السعادة، كما أن قسوتَه وعدمَ خشوعه

عنوانُ الشقاوة؛ فالخشوع انكسار القلب وذله بين يدي ربه، وأن يبقى هذا الخشوع مستصحباً مع العبد في جميع أوقاته، إن غفل رجع إليه، وإن مرح عاد إليه، وإن شرع في تعبد وقربة من القربات خضع فيها، وقام بالأدب الذي هو أثر الخشوع، خصوصاً في أم العبادات، والجامعة بين أنواع التعبدات القلبية والبدنية وأقوال اللسان وهي: الصلاة؛ فإنه يقوم فيها مراعياً للمراقبة،

ومرتبة الإحسان: أن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يره فإنه يراه، فيُجهد نفسَه على التحقيق بهذه العبودية الكاملة، فيُحضر قلبَه فيناجي ربه بقلبه قبل لسانه، ويستحضر ما يقوله ويفعله؛ فتسكن حركاته ويقل عبثه، ولهذا لما رأى النبي ﷺ رجلاً يصلي وهو يعبث في لحيته فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»[(١)].

وبهذا يُعرف أن من أعظم علامات الخشوع: سكونُ الجوارح، والتأدب في الخدمة الذي هو أثر سكون القلب، ولهذا وصف الله عباده الذين أضافهم إلى رحمته في قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: ٦٣] المراد: خاضعين متواضعين.

ومن أمارات هذا الخشوع: أن يطمئن القلب بذكر الله، ويخشع ويخضع للحق

---

(١) **موضوع**: أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٣٨٩/١) عن صالح بن محمَّد عن سليمان بن عمرو، عن ابن عجلان، عن المقبري، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا. وأورده السيوطي في «الجامع الصغير» (٧٤٤٧) ورمز له بالضعف.

قلت: وفيه سليمان بن عمر أبو داود النخعي، قال ابن عدي: «سليمان بن عمرو اجتمعوا على أنه يضع الحديث»، وقال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «ضعيف الجامع» (٤٨٢١): «موضوع».

الذي أنزله الله؛ فيعتقد ما دل عليه من الحق، ويرغب فيما دعا إليه من الخير، ويرهب عما حذر منه من الشر، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٢ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ [الزمر: ٢٢، ٢٣].

فالقلب القاسي لا تؤثر فيه الآيات شيئاً، ولا يزداد مع التذكير إلا تمادياً في غيّه وطغيانه وضلاله، والقلب الخاشع - لما كان حسن القصد متواطئاً على الحق طالباً له مستعداً لقبوله - لما وصل إليه الحق عرفه، وعرف الحاجة بل الضرورة إليه ففرح به واطمأن به، وزادت رغبتُه وأثّر في قلبه خضوعاً، وفي عينيه دموعاً، وفي جلده قشعريرة، ثم يلين قلبه ويطمئن إلى ذكر الله تعالى؛ فهذا من هداية الله لعبده وتوفيقه إياه.

إلا مَن أعرضوا فأعرض الله عنهم، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ٧٣﴾ [الفرقان: ٧٣] أي بل خروا سامعين مبصرين، منقادين لها طوعاً واختياراً، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾ [الإسراء: ١٠٧ – ١٠٩].

فهذا تأثير آيات الله في أهل العلم الخاشعين، يجمعون بين خشوع القلب وخضوع اللسان وتضرعه، وخضوع الجوارح حيث خروا للأذقان يبكون، وقال تعالى

بعدما ذكر أصفياءه الخاضعين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾ [مريم: ٥٨].

ومِن أعظم علامات الخاشعين: ما ذكر اللهُ بقوله ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤﴾ ثم وصفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾ [الحج: ٣٤ – ٣٥] فلما أخبتت قلوبهم إلى ربهم – فذلّت له وانكسرت وتبتّلت إليه تبتيلاً - وجِلَتْ عند ذكره، وصبرتْ على ما أصابها مِن ابتلاء الله، وأدَّتْ ما أُمِرتْ به من الصلاة وأنواع النفقات؛ فجمع بين وصف المخبتين، وبين أعمال القلوب – وهو الصبر والوجل – وأعمال الجوارح كلها، وأقوال اللسان - وهو الصلاة التي تجتمع فيها أنواع التعبد- والأعمال المالية، وتقديم محبة الله على محبة المال، فأخرَجتِ المالَ المحبوبَ للنفوس في الوجوه التي يحبها الله تعالى؛ إيثاراً لربها، فهذه أوصاف المخبت الخاشع، التي لا يستحق هذا الاسم من لم يتصف بها.

وكذلك: وصفهم بأنهم الذين يعرفون الحق في مواضع الشُبَه؛ فيزدادون إيماناً إلى إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾ [الحج: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ [هود: ٢٣] يتضمن وصفَ المخبتين الخاشعين بالرجوعِ إلى ربهم في جميع الحالات، والإنابة إليه في كل الأوقات؛ لأن تَعدية الفعل بـ (إلى) يدل على هذا المعنى، فإنهم لما أخبتوا إلى ربهم، وخضعوا لعظمته؛ أخبتوا إليه في التعبد متذللين فتقبّل منهم، وأوصلهم إلى مقصودهم، وجعلهم أصحابَ الجنة خالدين فيها، فلما خشعت قلوبُهم؛ خشعت أسماعُهم وأبصارُهم وألسنتُهم

وجوارحُهم للرحمن.

ومما يدل على أن هذه الأشياء تابعة للقلب في خشوعه: ما تقدم من قوله ﷺ: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»[(١)]، وقوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه:١١١]، ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨]، ولهذا فسّر كثيرٌ من المفسرين: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ٢] أنه غض البصر، وقلة الحركات، وعدم الالتفات، ولا شك أن هذا أثرُ الخشوع ودليلُه، فالخاشع: هو الذي سكن في قلبه تعظيمُ الله ووقارُه، وتصديقُ وعده ووعيده؛ فذلَّ وخضع، وانقادت جوارحه لما أُمرتْ به، وترك الأشرَ والبطرَ والمرحَ المنافي للخشوع، وكلما بعُد القلبُ عن هذا الوصف قسا وغلظ؛ فلم يخضع لأمر الله، ولا أثَّر فيه الذكر، بل ربما زاد خساراً، وافتتن عند المحن والشبهات، وفسق عن أمرِ ربه.

يا لطيفاً بالعباد، لطيفاً لما يشاء؛ الطف بنا في جميع الأمور.

---

(١) سبق تخريجه، راجع التخريج السابق.

مبحث عظيم جليل في
لطف الله سبحانه وتعالى بعباده

ما معنى: لطف اللهُ بعبده، ولطفه لعبده الذي تتعلق به آمال العباد، ويسألونه من ربهم؟ وهو أحد معني مقتضى اسمه اللطيف؛ فإن اللطيف بمعنى الخبير العليم قد تقرر معناه، ولكن المطلوب هنا المعنى الثاني، الذي يضطر إليه العباد، ولنذكر بعض أمثلته وأنواعه؛ ليتضح.

فاعلم أن اللطف الذي يطلبه العباد من الله بلسان المقال ولسان الحال هو من الرحمة، بل هو رحمة خاصة؛ فالرحمة التي تصل العبد من حيث لا يشعر بها أو لا يشعر بأسبابها هي اللطف.

فإذا قال العبد: يا لطيف الطف بي أولي وأسألك لطفك؛ فمعناه: تولني ولاية خاصة، بها تصلح أحوالي الظاهرة والباطنة، وبها تندفع عني جميع المكروهات: من الأمور الداخلية والأمور الخارجية، فالأمور الداخلية لطف بالعبد والأمور الخارجية لطف للعبد، فإذا يسر الله عبده وسهل طريق الخير وأعانه عليه فقد لطف به، وإذا قيض الله له أسباباً خارجية غير داخلة تحت قدرة العبد، فيها صلاحه فقد لطف له.

ولهذا لما تنقلت بيوسف عليه الصلاة والسلام تلك الأحوال، وتطورت به الأطوار من رؤياه وحسد إخوته له وسعيهم في إبعاده جداً، واختصاصهم بأبيهم، ثم محنته بالنسوة، ثم بالسجن، ثم بالخروج منه بسبب رؤيا الملك العظيمة وانفراده بتعبيرها، وتبوئه من الأرض حيث يشاء، وحصول ما حصل على أبيه من الابتلاء والامتحان، ثم حصل بعد ذلك الاجتماع السار، وإزالة الأكدار وصلاح حالة الجميع،

والاجتباء العظيم ليوسف - عرف عليه الصلاة والسلام أن هذه الأشياء وغيرها لطفٌ لطف الله لهم به، فاعترف بهذه النعمة فقال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: ١٠٠] أي: لطفه تعالى خاص لمن يشاء من عباده ممن يعلمه تعالى محلاً لذلك، وأهلا له، فلا يضعه إلا في محله.

والله أعلم حيث يضع فضله، فإذا رأيت الله تعالى قد يسر العبد لليسرى وسهل له طريق الخير، وذلل له صعابه وفتح له أبوابه ونهج له طرقه ومهد له أسبابه وجنبه العسرى فقد لطف به.

ومن لطفه بعباده المؤمنين أنه يتولاهم بلطفه فيخرجهم من الظلمات إلى النور، من ظلمات الجهل والكفر والبدع والمعاصي إلى نور العلم والإيمان والطاعة.

ومِن لطفه: أنه يرحمهم مِن طاعة أنفسهم الأمارة بالسوء، التي هذا طبعها وديدنها؛ فيوفقهم لنهي النفس عن الهوى، ويصرف عنهم السوءَ والفحشاءَ، فتوجد أسبابُ الفتنة، وجواذبُ المعاصي، وشهواتُ الغَي؛ فيرسل اللهُ عليها برهانَ لطفه، ونورَ إيمانهم الذي مَنّ به عليهم؛ فيَدَعونها مطمئنين لذلك، منشرحة لتركها صدورُهم.

ومن لطفه بعباده: أنه يُقدّر أرزاقَهم بحسب علمه بمصلحتهم لا بحسب مراداتهم، فقد يريدون شيئاً وغيرُه أصلح؛ فيقدر لهم الأصلح وإن كرهوه؛ لطفاً بهم وبراً وإحساناً ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ [الشورى: ١٩]، ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى: ٢٧].

ومِن لطفه بهم: أنه يُقدّر عليهم أنواع المصائب، وضروب المحن والابتلاء

بالأمر والنهي الشاق؛ رحمة بهم ولطفاً، وسوقاً إلى كمالِهم وكمالِ نعيمهم: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦].

ومن لطيف لطفه بعبده إذ أهّلَه للمراتب العالية، والمنازل السامية – التي لا تُدرَك إلا بالأسباب العِظام التي لا يدركها إلا أربابُ الهممِ العالية، والعزائمِ السامية – أن يُقدِّر له في ابتداء أمره بعضَ الأسباب المحتملة المناسبة للأسباب التي أُهِّل لها؛ ليتدرج من الأدنى إلى الأعلى، ولتتمرن نفسُه، ويصير له ملكة من جنس ذلك الأمر، وهذا كما قَدَّر لموسى ومحمدٍ وغيرِهما من الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم - في ابتداء أمرهم رعايةَ الغنم؛ ليتدرجوا من رعاية الحيوان البهيم وإصلاحه إلى رعاية بني آدم ودعوتهم وإصلاحهم.

وكذلك يذيق عبدَه حلاوة بعض الطاعات؛ فينجذب ويرغب، ويصير له ملكة قوية بعد ذلك على طاعات أجلّ منها وأعلى، ولم تكن تحصل بتلك الإرادة السابقة، حتى وصل إلى هذه الإرادة والرغبة التامة.

ومِن لطفه بعبده: أن يُقدّر له أن يتربى في ولاية أهل الصلاح والعلم والإيمان، وبين أهل الخير؛ ليكتسب مِن أدبهم وتأديبهم، ولينشأ على صلاحهم وإصلاحهم، كما امتن الله على مريم في قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾ [آل عمران: ٣٧] إلى آخر قصتها.

ومن ذلك: إذا نشأ بين أبوين صالحين، وأقارب أتقياء، أو في بلد صلاح، أو وفّقه الله لمقارنة أهل الخير وصحبتهم، أو لتربية العلماء الربانيين؛ فإن هذا مِن أعظم لطفه

بعبده، فإن صلاح العبد موقوف على أسباب كثيرة: منها، بل من أكثرها وأعظمها نفعا، هذه الحالة، ومن ذلك إذا نشأ العبد في بلد أهله على مذهب أهل السنة والجماعة فإن هذا لطف له.

وكذلك: إذا قدر الله أن يكون مشايخه الذين يستفيد منهم - الأحياء منهم والأموات – أهل سنةٍ وتقى؛ فإن هذا من اللطف الرباني، ولا يخفى لطف الباري في وجود شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ - في أثناء قرون هذه الأمة – وتبيين الله به وبتلامذته مِن الخير الكثير، والعلم الغزير، وجهاد أهل البدع والتعطيل والكفر، ثم انتشار كتبه في هذه الأوقات، فلا شك أن هذا مِن لطف الله لمن انتفع بها، وأنه يتوقف خيرٌ كثيرٌ على وجودها، فلله الحمد والمنة والفضل.

ومِن لطف الله بعبده: أن يجعل رزقه حلالاً في راحة وقناعة، يحصل به المقصود ولا يشغله عما خلق له من العبادة والعلم والعمل، بل يُعينه على ذلك ويفرّغه، ويريح خاطرَه وأعضاءَه، ولهذا من لطف الله تعالى لعبده أنه ربما طمحت نفسُه لسببٍ من الأسباب الدنيوية التي يَظن فيها إدراكَ بغيتِه، فيعلم اللهُ تعالى أنها تضره وتصدّه عما ينفعه؛ فيحول بينَه وبينها، فيظل العبدُ كارهاً ولم يدر أن ربه قد لطف به: حيث أبقى له الأمر النافع: وصرف عنه الأمر الضار، ولهذا كان الرضى بالقضاء في مثل هذه الأشياء من أعلى المنازل.

ومن لطف الله بعبده - إذا قدر له طاعة جليلة لا تُنال إلا بأعوان -: أن يقدر له أعواناً عليها ومساعدين على حملها، قال موسى عليه السلام: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣﴾ [طه: ٢٩ – ٣٤]، وكذلك امتن على عيسى بقوله: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا

وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١١]، وامتن على سيد الخلق في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنفال:٦٢]، وهذا لطفٌ لعبده خارجٌ عن قدرته.

ومن هذا لطف الله بالهادين: إذا قيّض اللهُ من يهتدي بهداهم، ويقبل إرشادهم؛ فتتضاعف بذلك الخيراتُ والأجورُ التي لا يدركها العبد بمجرد فعله، بل هي مشروطة بأمر خارجي.

ومن لطف الله بعبده: أن يعطي عبدَه – من الأولاد والأموال والأزواج – ما به تقرّ عينُه في الدنيا، ويحصل له به السرور، ثم يبتليه ببعض ذلك، ويأخذه ويعوضه عليه الأجر العظيم إذا صبر واحتسب، فنعمةُ الله عليه بأخذه على هذا الوجه أعظمُ من نِعمتِه عليه في وجوده، وقضاء مجرد وطَرِه الدنيوي منه. وهذا أيضاً خيرٌ وأجرٌ خارجٌ عن أحوال العبد بنفسه، بل هو لطف من الله له، قيّض له أسباباً أعاضه عليها الثواب الجزيل، والأجر الجميل.

ومن لطف الله بعبده: أن يبتليه ببعضِ المصائب، فيوفقه للقيام بوظيفة الصبر فيها؛ فيُنيلُه درجاتٍ عالية لا يدركها بعمله، وقد يُشدِّد عليه الابتلاء بذلك، كما فُعِل بأيوب عليه السلام، ويوجِد في قلبه حلاوة روح الرجاء، وتأميلَ الرحمة، وكشفَ الضر، فيُخفف ألمُه، وتنشط نفسُه، ولهذا من لطف الله بالمؤمنين: أن جعل في قلوبهم احتساب الأجر؛ فخفّت مصائبهم، وهان ما يلقون من المشاق في حصول مرضاته.

ومن لطف الله بعبده المؤمن الضعيف: أن يعافيه من أسباب الابتلاء التي تضعف إيمانَه، وتُنقص إيقانه، كما أن من لطفه بالمؤمن القوي: تهيئةَ أسباب الابتلاء والامتحان ويعينه عليها، ويحمِلها عنه ويزداد بذلك إيمانُه، ويعظم أجرُه، فسبحان اللطيف في ابتلائه وعافيته، وعطائه ومنعه.

ومن لطف الله بعبده: أن يسعى لكمال نفسه مع أقرب طريق يوصله إلى ذلك، مع وجود غيرها من الطرق التي تبعد عليه، فيُيَسّر عليه التعلُّم مِن كتابٍ أو معلمٍ يكون حصول المقصود به أقرب وأسهل، وكذلك ييسره لعبادة يفعلها بحالة اليسر والسهولة، وعدم التعويق عن غيرها مما ينفعه، فهذا من اللطف.

ومن لطف الله بعبده: قدر الواردات الكثيرة، والأشغال المتنوعة، والتدبيرات والتعلقات الداخلة والخارجة، التي لو قُسِّمت على أمةٍ من الناس لعجزت قواهم عليها، أن يمن عليه بخُلُقٍ واسع، وصدرٍ متسع، وقلبٍ منشرح، بحيث يُعطي كلَّ فردٍ من أفرادها نظراً ثاقباً، وتدبيراً تاماً، وهو غير مكترث ولا منزعج لكثرتها وتفاوتها، بل قد أعانه الله تعالى عليها، ولطَفَ به فيها، ولطَفَ له في تسهيل أسبابها وطرقها.

وإذا أردتَ أن تعرف هذا الأمر فانظر إلى حالة المصطفى ﷺ، الذي بعثه الله بصلاح الدارين، وحصول السعادتين، وبعثه مُكملاً لنفسه ومُكملاً لأمة عظيمة هي خير الأمم، ومع هذا مكّنه اللهُ ببعض عمره الشريف في نحو ثلث عمره أن يقوم بأمر الله كله على كثرته وتنوعه، وأن يقيم لأمته جميعَ دينهم، ويعلمهم جميع أصوله وفروعه، ويُخرج اللهُ به أمةً كبيرة مِن الظلمات إلى النور، ويحصل به من المصالح والمنافع، والخير والسعادة – للخاص والعام – ما لا تقوم به أمّةٌ مِن الخَلق.

ومن لطف الله تعالى بعبده: أن يجعل ما يبتليه به من المعاصي سبباً لرحمته، فيفتح له عند وقوع ذلك بابَ التوبة والتضرع، والابتهال إلى ربه، وازدراء نفسه واحتقارها، وزوال العُجب والكبر من قلبه ما هو خيرٌ له من كثيرٍ من الطاعات.

ومن لطفه بعبده الحبيب عنده: إذا مالت نفسُه مع شهوات النفس الضارة،

واسترسلت في ذلك؛ أن يُنَغِّصها عليه ويكدرها، فلا يكاد يتناول منها شيئاً إلا مقروناً بالمكدرات، محشواً بالغصص؛ لئلا يميل معها كل المَيل، كما أن مِن لطفه به أن يُلذِّذ له التقربات، ويحلي له الطاعات؛ ليميل إليها كل المَيل.

ومن لطيف لطف الله بعبده: أن يأجُرَه على أعمالٍ لم يعملها بل عزم عليها، فيعزم على قُربةٍ من القُرَب ثم تنحل عزيمته لسبب من الأسباب فلا يفعلها، فيحصل له أجرها، فانظر كيف لطف الله به! فأوقعها في قلبه، وأدارها في ضميره، وقد علم تعالى أنه لا يفعلها؛ سَوقاً لبِره لعبده وإحسانه بكل طريق. وألطف من ذلك: أن يقيض لعبده طاعةً أخرى غير التي عزم عليها، هي أنفع له منها؛ فيدع العبدُ الطاعةَ التي تُرضي ربَّه لطاعة أخرى هي أرضى لله منها، فتحصل له المفعولة بالفعل والمعزوم عليها بالنية، وإذا كان من يهاجر إلى الله ورسوله، ثم يُدركه الموتُ قبل حصول مقصوده قد وقع أجره على الله - مع أن قطع الموت بغير اختياره - فكيف بمن قَطَعت عليه نيتَه الفاضلة طاعةٌ قد عزم على فعلها؟! وربما أدار اللهُ في ضمير عبده عِدَّة طاعات، كل طاعة لو انفردت لفعلها العبد؛ لكمال رغبته، ولا يمكن فعلُ شيءٍ منها إلا بتفويت الأخرى، فيوَفِّقه للموازنة بينها، وإيثار أفضلها فعلاً مع رجاء حصولها جميعها عزماً ونية.

وألطف من هذا: أن يُقدِّر تعالى لعبده ويبتليه بوجود أسباب المعصية، ويُوفِّر له دواعيها، وهو تعالى يعلم أنه لا يفعلها؛ ليكون تركه لتلك المعصية التي توفَّرت أسبابُ فعلها مِن أكبر الطاعات، كما لطف بيوسف عليه السلام في مراودة المرأة، وأحدُ

السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: رجلٌ دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: «إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ»(١).

ومن لطف الله بعبده: أن يُقدِّر خيراً وإحساناً مِن عبده، ويُجرِيَه على يد عبده الآخر، ويجعله طريقاً إلى وصوله للمستحق، فيثيب اللهُ الأولَ والآخِرَ.

ومن لطف الله بعبده: أن يُجرِي بشيءٍ مِن مالِه شيئاً من المنافع وخيراً لغيره؛ فيثيبه من حيث لا يحتسب، فمن غرس غرساً، أو زرع زرعاً فأصابت منه روحٌ من الأرواحِ المحترمة شيئاً آجرَ اللهُ صاحبَه وهو لا يدري! خصوصاً إذا كانت عنده نيةٌ حسنة، وعَقَدَ مع ربه عقْداً في أنه مهما تَرتّب على ماله شيءٌ من النفع، فأسألك يا رب أن تأجرني، وتجعله قربةً لي عندك.

وكذلك لو كان له بهائم انْتُفع بدَرِّها ورُكُوبها والحَمْل عليها، أو مساكن انْتُفع بسكناها ولو شيئاً قليلاً، أو ماعونٍ ونحوه انْتُفع به، أو عينٍ شُربَ منها، وغير ذلك - ككتابٍ انْتُفع به في تعلم شيء منه، أو مصحفٍ قُرئ فيه – والله ذو الفضل العظيم.

ومن لطف الله بعبده: أن يفتح له باباً من أبواب الخير لم يكن له على بال، وليس ذلك لقلة رغبته فيه، وإنما هو غفلة منه، وذهول عن ذلك الطريق، فلم يشعر إلا وقد وجد في قلبه الداعي إليه، واللافت إليه؛ ففرح بذلك، وعرف أنها من ألطاف سيِّدِه وطُرُقه التي قيّض وصولهَا إليه؛ فصرف لها ضميرَه، ووجّه إليها فِكره، وأدرك منها

---

(١) حديث: «السبعة الذين يظلهم الله في ظله». أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ما شاء الله وفتح.

التقوى[١] مع كل مقام في الدين

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [المائدة: ٩٣] تأملتُ في فائدة تكرار التقوى في هذه الآية ثلاثَ مراتٍ؛ فوقع لي أحدُ وجهين:

أحدهما: أن الأول للماضي، والثاني للحال، والثالث في المستقبل.

وبيان ذلك: أن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ أن (جناح) نكرة في سياق النفي؛ فتعم الماضي والمستقبل والحال، لأنه نفى الجناحَ عن المؤمنين مطلقاً، وهذا النفي العام لا ينطبق إلا على الأحوال الثلاثة، ويكون هذا التكرار من محترزات القرآن، التي يحترز الباري فيها عن كل حالٍ تُقَدّر وتُمْكِن؛ لأنهم لو اتقوا في الماضي أو في الحال أو فيهما دون المستقبل لم يَصدُق عليهم نفي الجناح، ولا بد في كل حالة من الأحوال التي تُقام فيها التقوى مِن الإيمان والعمل الصالح، ومن الإيمان والإحسان؛ يُؤيِّدُ هذا الاحتمال قولُه: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، فإن قوله: ﴿فَلَآ إِثْمَ

---

(١) التقوى: مأخوذة من التوقي: وهو الحذر. يقال: توقيت واتقيت الشيء: حذرته، والاسم التقوى، والتاء بدل من الواو. «اللسان» (٦/٤٩٠١).

عَلَيۡهِۚ﴾ نظيرُ قولِه (جناح) ولما كانت هذه الآية لا يُتَصور فيها الماضي كما هو بيّن - لأنه شرط وجزاء للمستقبل، ويصلح للحال – قال: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ يعني في الحال، لمن اتقى اللهَ فيها، ثم ذكر ما يصلح للمستقبل فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فإذا قُرِنت هذه بتلك بانت لك فائدةُ التكرار، وأن ذلك لأجل عموم الأزمنة.

الوجه الثاني: أن الأول في مقام الإسلام، والثاني في مقام الإيمان، والثالث في مقام الإحسان: والمؤمن لا تكمل تقواه حتى يترك ما حرم اللهُ، ولا يتمَّ دينُه إلا بهذه المقامات الثلاثة[1]؛ لأن مقام الإسلام يقتضي وجود الأعمال الظاهرة مع الإيمان والتقوى، فقال فيها: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ومقام الإيمان لا بد فيه من القيام بأركان الإيمان مع التقوى، فقال فيه: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ﴾ ومقام الإحسان

---

(١) وقد صنف شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاباً في هذه المقامات الثلاث أسماه «الإيمان الأوسط»، وهو من أروع ما صنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ولأهمية هذه المقامات في الإسلام كان سؤال جبريل عنها في حديث البخاري (٥٠)، ومسلم (٨) ليعلم الناس أمر دينهم كما جاء عن النبي ﷺ وفيه إشارة إلى أن الدين لا يكمل إلا بهذه الثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان، وكل منها يلزم لتمامه التقوى، ولهذا كانت الحكمة من كل التشريعات والهدف الأسمى من جميع الرسالات هو التقوى، ولو تدبرنا سورة الشعراء لوجدنا أن كل نبي كان يأمر قومه بالتقوى، والقرآن الكريم في كثير من أمور الدين يُبين أن الهدف والغاية من هذه الأمور هو التقوى فيقول في الصيام: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ ، وفي الحج: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾ ، وهكذا فاللّٰهُمَّ ارزقنا التقوى في القول والعمل وانفع بنا واجعل هذا العمل لوجهك الكريم خالصاً وانفع به جميع المسلمين، واغفر لأبي وارحمه واجزه عني كل خير... آمين.. آمين.

لا بد فيه من القيام بالإحسان مع التقوى، فقال فيه: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْ﴾ فنفي الجناح العام لا يكون إلا لمن قام بمقاماتِ الدِّين كلِّها؛ وعلى هذين الوجهين ففي الآية الكريمة من بيان جلالة القرآن وعظمته – وإحكام معانيه ورصانتها، وعدم اختلالها واختلافها – ما يشهد به العبدُ أنه كلامُ الله حقاً وصدقاً وعدلاً، وأنه مُحتوٍ على أعلى رُتَبِ البلاغة التي لا يقاربه فيها أيُّ كلام كان، وقد يُقال: إن كلا الوجهين مراد؛ لأن اللفظ لا يأباه، والمعنى مفتقر إليه، وطريقة القرآن أن يُحمَل على أعمّ الوجوه المناسبة؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد، عليم بكل شيء، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه، اللّهُمَّ ذكّرنا منه ما نُسِّينا، وعلِّمنا منه ما جهلنا، واجعلنا ممن يتلونه حق تلاوته.

خاتمة

وأرجو من الله أن يكون ما نحن فيه من هذا النوع؛ فإن جنس هذه الفوائد المذكورة في هذه الرسالة قد كانت تعرض لي كثيراً أثناء القراءة لكتاب الله، فأتهاون بها ولم أقيدها، فيضيع شيء كثير، فلما كان أول يوم من هذا الشهر المبارك أوقع في قلبي أن أقيد ما يمر عليّ من الفوائد والمعاني المتضحة، التي لا أعلم أنها وقعت لي قبل ذلك، فعملتُ على هذا النمط، حتى كان الانتهاء إلى لطف الله، كما كان الابتداء بلطف الله بهذه الرسالة اللطيفة.

وكان ذلك موافقاً للثامن والعشرين من هذا الشهر المبارك، الذي حصل به الابتداء في ٢٨ من شهر رمضان سنة ١٣٤٧ سبع وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه.

وصلى الله على محمد وسلم.

وقد تمت هذه الرسالة على يد جامعها الفقير إلى ربه من كافة الوجوه:

عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي.

فهرس المحتويات

مقدمة التحقيق..... ٥
عملي في الكتاب..... ٨
ترجمة المصنف..... ٩
١) اسمه ونسبه ومولده ونشأته:..... ٩
٢) طلبه للعلم ومشايخه:..... ١٠
٣) عقيدته:..... ١١
٤) تلاميذه:..... ١١
٥) مكانته العلمية وطريقته في التدريس:..... ١٢
٦) ثناء العلماء عليه:..... ١٣
٧) مؤلفاته:..... ١٤
٨) مرضه ووفاته:..... ١٦
مقدمة المصنف..... ١٩
التسليم لله عزّ وَجلَّ أساس النجاة..... ١٩
التيسير في الشريعة الإسلامية..... ١٩
يود المجرم أن يفتدي نفسه يوم القيامة، بينما افتدى المؤمن نفسه في الدنيا بالتقوى والعمل الصالح..... ٢١
إتمام الله عَزَّ وَجَلَّ نعمته على رسوله ﷺ..... ٢٢
فائدة جليلة في أحكام العدة..... ٢٢
الإيمان والاحتساب يخفف المصائب..... ٢٥
الأصل الجامع والمقصود الأعظم في كل العبادات هو الذكر..... ٢٦
فصل في معرفة الراسخين في العلم..... ٢٧
توطين النفس على عدم الانقياد للحق لا ينفع معه تذكير ولا وعظ..... ٢٩

البشارة عن الشهداء حث على الجهاد..... ٢٩
الإيمان النافع..... ٣١
أداء الدَّيْن فريضة إلزامية أما الوصية فمنحة شرعية..... ٣٢
ما عند الله لا يُنال إلا بطاعته..... ٣٣
الزهد في الدنيا من شيم أهل العقل..... ٣٤
تقديم الغايات والمقاصد على الوسائل..... ٣٦
ذِكْرُ الله مرقِّع للخلل متمم لما فيه نقص..... ٣٩
وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ..... ٤٠
فصل اختيار الأصحاب من شيم أولي الألباب..... ٤١
الفرق بين تزكية العبد لنفسه وتزكية الله لعباده..... ٤١
اتفاق المقاصد من أسباب حصول المطالب..... ٤٢
براءة الله ورسوله ﷺ من المشركين في سورة والكافرون..... ٤٣
في رحاب سورة التوبة..... ٤٣
الحض على قتال أئمة الكفر لنقضهم العهد وطعنهم في الإسلام..... ٤٤
تطهير المقدسات..... ٤٥
آكلو الأموال المحرمة..... ٤٦
معرفة الشهور من إلهام الله لعباده..... ٤٩
فريضة جهاد المشركين وشروط النصر..... ٥٠
تحريم الحيل..... ٥٣
الدعوة إلى الله من العباد أما الهداية فمن رب العباد..... ٥٣
معرفة الله في السراء والضراء من أكمل الإيمان ومن شعب الشرك أن لا يعرف إلا عند الضرورة..... ٥٥

القلب كالأرض فمتى نزل غيث السماء على الأرض ربت وأنبتت ومتى نزل غيث الوحي والعلم على القلب أنبت المعارف الواسعة والمحبة الله ورسوله ﷺ والخير الكثير وغير ذلك من العلوم والأعمال ٥٨

ترويض النفس على الأعمال الفاضلة يهون الصعاب ويجعل المحنة منحة..... ٦٠

منزلة الخوف عند الصالحين..... ٦٠

فصل قوة العزيمة في الاستمرار على أمر الله وصف لمن بلغ الدرجات العالية..... ٦١

فضيلة التأدب بالآداب الشرعية..... ٦٤

فصل فعل الذنب إثم والإصرار عليه إثم أعظم..... ٦٥

التوكل على الله وأخذٌ بالأسباب معًا من أفضل عبوديات القلب..... ٦٦

فصل تسلية النفس عما عجزت عنه بتذكيرها نعمة الله عليها..... ٦٨

حكمة الاستئذان حصول الاستئناس..... ٦٩

القرآن هداية عامة والمقصود الأسمى منه هو التدبر والتأمل في آياته..... ٧٢

ما يجري على الأخيار فيه النفع لهم ولغيرهم..... ٧٧

الشيء إن صح أبطل نقيضه، وعليه فصحة التوحيد إبطال للشرك..... ٧٨

علوم الدين إما مسائل نافعة وإما دلائل مصيبة وكل ذلك في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وسنة رسوله ﷺ..... ٨٠

الله لا يهدي من غلبت عليهم الشقوة ويهدي من سبقت لهم الحسنى وإن كانوا ممن حارب الله ورسوله ﷺ..... ٨١

دفع التهمة عن النفس من سمات الأخيار..... ٨٢

التوكل على الحي يُحيي القلوب والأمور كلها..... ٨٣

من خصائص كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ..... ٨٤

فائدة عظيمة ومبحث بديع في معاني أدعية القرآن الكريم..... ٨٨

فصل إذا حكم الحاكم بالحق فقد سلك سبيل الأنبياء..... ١٠١

النجاة من العذاب والنعيم في الجنة وعدٌ من الله للمتقين..... ١٠٢

الإخلاص من أعظم أسباب عون الله للعبد ١٠٢
إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه ١٠٣
الأسباب المشاهدة وراءها أسباب أخرى غيبية أقوى منها وقدرة الله لا تعارضها الأسباب ١٠٣
حصول التمكين لأهل الإيمان كان بعد هجرتهم إلى المدينة ١٠٤
أنواع التجارة ١٠٥
رحمة الله بأوليائه وأعدائه ١٠٦
المؤمنون أحق بالبيت الحرام من المشركين ١٠٦
فضل الله ورحمته بعباده ١٠٧
الأمر بالسعي بالأسباب المباحة وتحريمه بالأسباب المحرمة مع لزوم التقوى حتى يحصل الفضل من الله تعالى ١٠٨
الأعراف ١٠٨
كمال معرفة الأنبياء بربهم ١١٠
العقل الصحيح والفطرة المستقيمة يشهدان باستقامة هذا الدين وكماله وسر العداوة بين النبي وقومه أن الحق الذي جاء به خالف هواهم، فدل ذلك على فساد عقولهم وانحراف فطرتهم ١١٢
اتباع الشهوات والهوى من طباع النفس الأمارة بالسوء ١١٢
إقرار التوحيد بأقسامه وبطلان الشرك عقلاً ونقلاً ١١٣
فصل الجزاء من جنس العمل ١١٧
ثمرات القرب من الله ١١٨
أهل العلم وسائل بين الله وبين عباده بهم يعرف الحلال والحرام ١٢٠
فائدة عظيمة بل هي أعظم الفوائد على الإطلاق ١٢٢
صفات المؤمنين الناشئة عن إيمانهم ١٢٢
من دعا إلى حق أو أنكر منكر وجب معاونته مع الأخذ بأسباب النصرة ١٤١

الإخلاص لله والرجوع إليه من أهم أسباب الهداية..... ١٤٢
الأمر السماوي ليس في مقدور المخلوقات ولا استطاعتهم إنما هو منحة من الله يهبها من يشاء من عباده..... ١٤٢
أفضل الشكر الإكثار من الذكر..... ١٤٣
نعمة الدين ونعمة الدنيا تحصل بهما السعادة العاجلة والآجلة..... ١٤٣
من أحب أمر الله وكره ما نهى عنه حفظه الله من كل سوء..... ١٤٤
إبطال زعم أن لله ولدًا تعالى الله عما يقولون علوا كبيرًا..... ١٤٥
فصل مبحث جليل في الإيمان بالغيب..... ١٤٧
تدبر اسم الله..... ١٥٠
تدبر اسم العليم..... ١٥٠
تدبر اسم الرحمن..... ١٥٢
مبحث دقيق في الخشوع وعلاماته وثناء الله على أهله..... ١٥٧
مبحث عظيم جليل في لطف الله سبحانه وتعالى بعباده..... ١٦٢
التقوى مع كل مقام في الدين..... ١٧٠
خاتمة..... ١٧٣